رياض الجنة

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه
بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل
أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة
الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
info@almaktabalmasry.com

القـــاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شـــارع نوبـــار المنشـــية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

عبد الحميد كشك

رياض الجنة

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.com

الإهداء

يهزني السرور، وتغمرني الغبطة، ويملأ جانبي الفخار، عندما أقوم بإهداء هذا الكتاب إلى كل مسلم يهتم بأمر دينه، والتفقه في شريعة الإسلام.

فما أحوج المسلمين أن يلتفوا حول مائدة الإسلام، ويتمسكوا بهدية القويم، وينهجوا نهجه السليم، خصوصاً إذا كنا نريد أن نقيم النفس الإنسانية إقامة سوية!

فقد قيل لأحد العلماء: هل قرأت أدب النفس لأر سطو؟ فقال:إنما قرأته لمحمد ﷺ، فإن أدب النفس الذى كتبه "أرسطو" لم يبن أمة، إنما أدب النفس لمحمد، هو الذى أقام أمة وطيدة البنيان. قوية الأركان!!

أهديه إلى كل مسلم يعتز بنبى الإسلام محمد ﷺ، ويرى فيه الأسوة الحسنة، والقدوة الطيبة.

فقد قرأت بحثا للفيلسوف والكاتب الألمانى "جوته" المعروف بأنه أكبر شعراء أوربا وفلاسفتها أنقله هنا بنصه وهو يصف النبى ﷺ بأنه "رجل خارق للعادة، وأنه نبى، ليس بشاعر، وأنه لم يتكلم فى كتابه عن موضوعات تلذ مسامع القراء وأذواقهم،كما يفعل الشعر، وإنما حصر كلامه فى غاية مقدسة جعلها نصب فكره، وأن عظمة القرآن هى الآيات السبع الأولى من سورة "البقرة"، وقد ترجمها، وأن الغاية المبتغاه من الوعد والوعيد اللذين يتكرران دائماً: واحدة فى القرآن كله، وهذا التكرار، وإن كان يبدو فى بادىء الأمر مخلا، إلا أن بلاغة القرآن تنتهى إلى انجذاب الإنسان إليها وانبهاره، ثم إلى تقديسه إياها".

وقال أيضاً فى كلامه عن أسلوب القرآن العظيم:

"إنه واضح، وحاسم، وعظيم، مناسب لموضوع الكتاب، ومفيد، وبعضه عال حقاً.. فإذا وزنت الآراء المتناقضة، فلن يستغرب أحد التأثير العظيم الذى يقرره هذا الكتاب".

ثم تكلم "جوته" مختصراً عما دار فى القرآن من مجادلات وقال مدافعاً عنه:

"إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى الأبد، ولأن تعاليمه عملية مطابقة للحاجات الفكرية لقوم معتزين بتقاليدهم، متمسكين بعاداتهم القديمة".

ثم تكلم "جوته" عن قصتى إبراهيم ويوسف عليهما السلام فقال: إنها معجزة.

***

إن شهادة رجل بعيد عن البيئة التى نزل فيها القرآن المجيد، غير واقف على دقائق لغة العرب، بهذا الإجلال للقرآن: لتعد برهاناً ساطعاً لعظمته الخالدة.

فأولى بالمسلمين أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق،وأن يعودوا إلى دينهم ويعتزوا بإسلامهم.

كما أهدى هذا الكتاب إلى كل رجل قلبه معلق بالمساجد، يستمع إلى ما يتلى فيها من كتاب الله والحكمة، حتى يكون له شرف الشهادة بالإيمان، كما أخبر جل شأنه فى كتابه الكريم حيث يقول:

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (التوبة:١٨).

المؤلف

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين.

اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونستغفرك ونتوب إليك، ونؤمن بك ونتوكل عليك، ونثنى عليك الخير كله: نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك.

اللهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد: نرجوا رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

أيها القارىء الكريم:

أقدم هذا الكتاب، وقد ضمنته دروساً كان لى الشرف فى إلقائها، والتبرك بما ورد فيها من كتاب الله والحكمة.

ولذلك فأنى عندما أسجلها على هذه الصفحات، وأتذكر المكان الذى قمت بإلقائها فيه، وهو المسجد، وكما ورد "أن النبى ﷺ سئل: فقيل له ما خير البقاع فى الأرض؟ فقال: لا أدرى حتى أسأل أخى جبريل، فلما سأل جبريل قال جبريل لا أدرى حتى أسأل رب العزة، ثم هبط عليه فقال يا

رسول الله: خير البقاع فى الأرض المساجد، وخير أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجاً".

كما أننى أذكر الزمان الذى كنت ألقى فيه تلك الدروس.

كان ذلك بعد الفراغ من صلاة المغرب من كل يوم.

وأود أن أنبه إلى أن هذه الدروس متنوعة الموضوعات، لتكون شاملة لكثير من المعانى، حتى يعم نفعها، وتؤتى ثمارها من الإيمان والهدى.

وإنى لأسأل الله أن يجعلها من القلب لتصل إلى القلب.. فخير الكلام ما كان مقصوداً به وجه الله.

فاللهم إنا نسألك علماً نافعاً،ورزقاً واسعاً، ولساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وحلالاً طيبًا، وشفاء من كل داء. ونعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع.

***

والآن.. فإلى هذه الجلسات المباركة فى رحاب المدرسة النبوية: مدرسة محمد ﷺ.

عبد الحميد كشك

رحلة مع القرآن العظيم

(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (إبراهيم:١)

عندما يلجأ المسلم إلى الله ويركن إلى جنابه: ينشرح صدره، ويشعر قلبه بالطمأنينة، ويستقر فؤاده بالسكينة.

وهل يجد البشر فى أرجاء هذه الدنيا مناراً يستضيئون به، أو يأوون إليه إذا لفحتهم حرور الحياة: أفضل وأعز من كتاب الله؟

إننى أقف مرفوع الرأس،عزيز الجانب، عندما أقرأ هذا الحديث الشريف، الذى دار بين معاذ بن جبل وبين نبى الرحمة وإمام الهدى محمد ﷺ.. إذ يقول معاذ: يا رسول الله: عظنا موعظة ننتفع بها.

فبأى شىء وعظه الرسول صلوات الله وسلامه عليه؟

كانت الموعظة تحديداً للمفاهيم، وتبياناً للحقائق، بأسلوب فيه الإعجاز والبلاغة كلها.

قال الرسول ﷺ فى موعظته: "إن أردتم عيش السعداء، وموت الشهداء، والنجاة يوم الحشر، والهدى يوم الضلالة، والظل يوم الحرور: فادرسوا القرآن، فإنه كلام الرحمن،حرز من الشيطان، ورجحان فى الميزان".

صدقت يا سيدى يا رسول الله.

فالقرآن هو القدوة الحسنة، والأسوة الطيبة، والمنهج المستقيم، وهو الضياء، والدواء، والشفاء، وهو مفتاح السعادة فى الدنيا و الآخرة!.

أقوال الأئمة فيه

وقد ذكر الإمام الطبرى أن القرآن الكريم من أعظم ما خص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة، وحباهم به من الكرامة السنية، الذى لو اجتمع جمع من جنها وإنسها، وصغيرها، وكبيرها على أن يأتوا بسورة من مثله لما استطاعوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فجعله لهم فى دجى الظلم نوراً ساطعاً، وفى ظلمة الشبه شهاباً لامعاً، وفى مضلة المسالك دليلا، وإلى سبل النجاة والحق هادياً.

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (المائدة:١٦). حرسه بعين منه لا تنام، وأحاطه بركن منه لا يضام. لا تهى على الأيام دعائمه، ولا تبيد على طول الأزمان معالمه، ولا يجوز عن قصد الحجة تابعة، ولا يضل عن سبل الهدى مصابحه.. من اتبعه فاز وهدى، ومن حاد عنه ضل وغوى.

فهو موئلهم الذى إليه عند الاختلاف يئلون، ومعقلهم الذى إليه فى النوازل يعقلون، وحصنهم الذى به من وساوس الشيطان يتحصنون، وحكمة ربهم التى إليها يحتكمون، وفصل قضائه بينهم الذى إليه ينتهون، وعن الرضا به يصدرون، وحبله الذى بالتمسك به من الهلكة معتصمون.

ويقول الإمام الزركشى فى مقدمة كتابه "البرهان" كلاماً كالدر النظيم، رأينا أن نسجله هنا، لما له من روعة وجلال.

يقول رحمه الله: "أما بعد، فإن أولى ما أعملت فيه القرائح، وعلقت به الأفكار اللواقح: الفحص عن أسرار التنزيل، والكشف عن حقائق التأويل... والنعمة الباقية، والحجة البالغة، والدلالة الدامغة.. وهو شفاء الصدور، والحكم العدل عند مشتبهات الأمور. وهو الكلام الجزل،وهو الفصل الذى ليس بالهزل.. سراج لا يخبو ضياءه، وشهاب لا يخمد نوره و سناؤه، وبحر لا يدرك غوره. بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول.. وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتقارن فى الحسن مطالعه،ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه.

قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه، وقسم لفظه ومعناه، إلى ما ينشط السامع، ويقرط المسامع، من تجنيس أنيس، وتطبيق لبيق، وتشبيه نبيه، وتقسيم وسيم، وتفصيل أصيل، وتبليغ بليغ، وتصدير بالحسن جدير، وترديد ماله مزيد، إلى غير ذلك مما احتوى من الصياغة البديعة، والصناعة الرفيعة.

فالآذان بأقراطه حالية، والأذهان من أسماطه غير خالية.

فهو من تناسب ألفاظه، وتناسق أغراضه: قلادة ذات اتساق: ومن تبسم زهره، وتنسم نشره حديقة مبهجة للنفوس والإسماع والأحداق.

كل كلمة منه لها من نفسها طرب، ومن ذاتها عجب، ومن طلعتها عزة، ومن بهجتها درة، لاحت عليها بهجة القدرة. ونزل ممن له الأمر،فله على كل كلام سلطان وإمرة، بهر النفوس بتمكن فواصله، وحسن ارتباط أواخره وأوائله، وبديع إشاراته وعجيب انتقالاته، من قصص باهرة، إلى

مواعظ زاجرة، وأمثال سائرة، وحكم زاهرة، وأدلة على التوحيد ظاهرة.. بالتنزيه والتحميد سائرة، ومواقع تعجب واعتبار، ومواطن تنزيه واستغفار.

إن كان سياق الكلام ترجية: بسط، وإن كان تخويفاً: قبض،وإن كان وعداً: أبهج، وإن كان وعيداً: أزعج،وإن كان دعوة: حدب، وإن كان زجره: أرعب. وإن كان موعظة:أقلق، وإن كان ترغيباً: شوق!

هذا، وكم فيه من مزايا، وفى زواياه من خبايا، ويطمع الحبر فى التقاضى فيكشف الحبر عن قضايا. فسبحان من سلكه ينابيع فى القلوب، وصرفه بأبدع معنى وأغرب أسلوب.. لا تستقصى معانيه فهم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق !

فالسعيد من صرف همته إليه، ووقف فكره وعزمه عليه.. والموفق من وفقه الله لتدبره، واصطفاه للتذكير به وتذكره.

***

ارجع البصر يا أخى فى هذه الدرر الغوالى تجدها لؤلؤاً منثوراً.لأنها درات فى فلك رفيع، كان مركز الدائرة فيه أشرف كتاب وأصدق كلام:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) (الإسراء:٨٢).. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (يونس:٥٧-٥٨).. (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ) (فصلت: ٤٤).. (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: ٨٩).

أقوال المستشرقين فيه:

قال "جاستون كارمن" من مستشرقى فرنسا المشهورين، فى سلسلة مقالات نشرها فى جريدة "فيجارو" عام ١٩١٣:

"إن القرآن، وهو منبع هذا الدين العقلى ودستوره، قد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم.. ففى إمكاننا أن نقول إن هذه الحضارة نشأت من امتزاج الأسس التى نشرها الإسلام"!

ويقول المؤرخ الإنجلزى "إدوار كيبون":

"إن موحداً ذا رأس فلسفى: لا يتردد لحظة فى قبول وجهات نظر الإسلام.. فالإسلام دين أعلى من تطورنا الفكرى اليوم"!

***

إن هذا القرآن العظيم من حقه علينا أن نفقه آياته: ونتدبر معانيه. يقول تقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه: "ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم عباده فيم إذا أنزلت! وماذا عنى بها؟ وما استثنى من ذلك، لا متشابها ولا غيره".

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يحرصون على تفهم كتاب الله تعالى وتطلب تفسيره. ولذلك يقول ابن مسعود رضى الله عنه: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات: لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن".

لذلك أفلحوا ونجحوا، وكتبت لهم السعادة فى الدنيا والآخرة !.

كان الواحد منهم إذا دخل بيته: بادرته زوجه بهذين السؤالين: كم نزل اليوم من القرآن؟ وكم حفظت من حديث رسول الله ﷺ؟ هذان السؤالان توجههما الزوجة لزوجها عندما يعود آخر نهاره، أما عند خروجه من بيته: فكانت توصيه وتقول له: "اتق الله، ولا تكسب حراماً، فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا، ولا نستطيع أن نصبر على عذاب جهنم يوم القيامة".

إن هؤلاء النفر – الذين تخرجوا فى أعظم مدرسة: تتلمذوا فيها على يدى الكتاب السنة – كنت تسمع القرآن منهم وله دوى كدوى النحل.. حفظوه فى صدورهم، وعملوا به فى حياتهم، وفتحوا به الدنيا، فدانت لهم، فلما أهملنا نحن هذا النهج: تفرقت كلمتنا وأصبحنا مطمع الحاقدين، وهانت علينا أنفسنا، فهنا على الناس !

أخى فى الإسلام:

أقبل على القرآن، وتفهم معانيه، فليس هناك شك فى أن عدم الوقوف على تفسير القرآن الكريم يجعل الإنسان جاهلا بمقاصد هذا الكتاب الإلهى المجيد.

ومن هنا قال سعيد بن جبير رحمه الله: "من قرأ القرآن ولم يفسره: كان كالأعمى أو كالأعرابى" يقصد: البدوى الجاهل الذى لم يتعلم"

ولذلك جاء فى تفسير الطبرى قوله: "حث الله عز وجل عباده على الاعتبار بما فى آيات القرآن، من المواعظ والتبيان بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ) (ص:٢٩).

وقوله: (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (الزمر:٢٧-٢٨).

وما أشبه ذلك من آى القرآن التى أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آى القرآن والاتعاظ بمواعظه ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيات لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله:اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان، إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه ثم يتدبره ويعتبر به.

ويقول العلامة ابن كثير فى مقدمة تفسيره:

فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله، وتفسير ذلك وطلبه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) (آل عمران:١٨٧).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (آل عمران:٧٧).

***

لقد ذم الله أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن الكتاب المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا نحن المسلمين أن ننتهى عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا من تعلم كتابه، المنزل إلينا، وتعليمه وتفهمه وتفهيمه.

الحث على مدارسة القرآن

لقد بلغ من ترغيب الرسول ﷺ فى الحرص على تلاوة القرآن ودراسته أنه قال: "ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة،وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده".

أخى القارىء الكريم:

أرأيت مكاناً أجل وأعظم من هذه الروضة المباركة؟

إنه مكان تتنزل فيه السكينة: وما أدراك ما هى؟

إنها مملكة من ممالك الله العليا يختص بها من يشاء من عباده.. إذا حلت بالقلوب أكسبتها طمأنينة واستقرار ومن ثم: فقد ورد ذكر السكينة فى كتاب الله تعالى فى مواقف حاسمة تكاد تنخلع منها القلوب لشدة ما فيها من الهول.. فإذا السكينة تنزل على الأفئدة كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى.

ورد ذكر السكينة عندما كان الرسول ﷺ فى الغار مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه، والموقف شديد يفسره قول أبى بكر يا رسول الله: لو أن أحدهم نظر إلى موقع قدميه لرآنا فيقول السيد الجليل محمد ﷺ يا أبا بكر "ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا".

وعندئذ تنزل السكينة، وهى النعمة العظمى فيقول سبحانه (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) (التوبة: ٤٠).

وفى غزوة "حنين"، وقد احتدم الخطب، وادلهم الأمر، كما قال ربنا جل وعلا: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) (التوبة: ٢٥) فماذا حدث؟ والشدة قد استحكمت حلقاتها.. فالكثرة العددية لم تغن شيئا، والأرض بأرجائها الرحبة قد ضاقت والنبى ﷺ فى ثبات وعزيمة ينادى، "أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب".

إنها السكينة قد نزلت،كما قال مولانا تبارك اسمه (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) (التوبة:٢٦).

وجاءت السكينة فى سورة "الفتح" امتناناً من الله تعالى على عباده، لتكون غايتها ازدياد إيمان المؤمنين.. قال جل شأنه: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ) (الفتح: ٤).

وتأتى السكينة فى موضع آخر من سورة الفتح أيضاً فى بيعة الرضوان، حين وقف الصحابة يبايعون رسول الله ﷺ على القتال صفاً واحداً إن كان أهل مكة قتلوا عثمان بن عفان سفير رسول الله ﷺ إليهم فتنزل السكينة تثبيتاً وتقوية وتوكيداً.. قال جل شأنه (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) (الفتح:١٨).

كما تجيء فى موضع ثالث من سورة "الفتح" أيضاً.. وذلك أثناء توقيع المعاهدة بين المسلمين والمشركين فى صلح الحديبية، وحين ركب سهيل بن عمرو مندوب المشركين رأسه ويأبى أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، ويكتب باسمك اللهم،كما يأبى أن يذكر فى المعاهدة اسم رسول الله،بعنوان الرسالة، ويقول: بل أكتب محمد بن عبد الله... إلى غير ذلك من التعنت والتعسف، وعندئذ تثور ثورة المسلمين، لكن الله تعالى-لحكمة يعلمها،وخير كثير سوف يعود على المسلمين من تلك المعاهدة - ينزل السكينة على المؤمنين تثبيتاً وتقوية... يقول جل شأنه وصفاً لهذا الموقف (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) (الفتح:٢٦).

والمراد بكلمة "التقوى" هنا: هى كلمة التوحيد لا إله إلا الله. تلك مواقع السكينة فى جلالها وجمالها وكمالها.

إن تلك النعمة - كما جاء فى الحديث الشريف الذى ذكر آنفاً- تنزل مع الرحمة والملائكة على الذين يجلسون يقرأون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم، إنهم ينالون شرفاً كبيراً وقدراً رفيعاً، إذ أن الله جل جلاله يذكرهم فيمن عنده من الملأ الأعلى.

فما أعظم هذا الشرف! (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) (المطففين:١٨-٢١).

وإذا علمت أن تلاوة القرآن وتدارسه لها من الشرف ما يجل عن الوصف، فإن العلم به يزيد هذه المكانة قرباً وحباً إلى الله، قال مجاهد

رحمه الله: "أحب الخلق إلى الله تعالى:أعلمهم بما أنزل". والمراد بهؤلاء هم الذين يقرنون العلم بالعمل.. لذلك قال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما – أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات: لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعمل و العلم جميعاً. ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة"!

***

اعلم يا أخى وفقك الله أن لتفسير القرآن أهمية كبرى، ليتسنى لك العمل بما فيه وإلا فكيف يعمل الإنسان بما لا يفهم معناه؟ قال إياس بن معاوية رضى الله عنه، مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره: كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا، وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة، ولا يدرون ما فى الكتاب، ومثل الذى يعرف التفسير: كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما فى الكتاب".

فضل تعلم القرآن
والواجب على قارئه وحافظه

إن تعلم القرآن لهو نعمة من أعظم النعم التى امتن الله بها على عباده. ولقد قرنها الله تعالى باسمه العظيم، وجعلها مظهراً من مظاهر رحمته، وقدمها فى الذكر على خلق الإنسان، وذلك لشرف القرآن وعلو قدره، إذ هو القائد الموجه، والمرشد الصدوق، والإنسان هو المقود والتابع، ومن حق القائد أن يتقدم المقود.

يقول سبحانه: (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) (الرحمن:١-٤).. فنعم الذى علم، ونعم القرآن، ونعم من تعلمه!

يقول الإمام القرطبى رحمه الله، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الرب الصمد الواحد، الحى القيوم، الذى لا يموت، ذو الجلال و الإكرام، والمواهب العظام، والمتكلم بالقرآن، والخالق للإنسان، والمنعم عليه بالإيمان،والمرسل رسوله بالبيان:محمدﷺ، ما اختلف الملوان، وتعاقب الجديدان.

أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشك واليقين، الذى أعجز الفصحاء معارضته، وأعيت الأدباء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

جعل الله أمثاله بشرى لمن تدبرها وأوامره هدى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرق فيه بين الحلال والحرام،وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقص فيه غيب الأخبار،

فقال تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (الأنعام: ٣٨). خاطب به أولياء ففهموا، ومن فهم مراده تعلموا، فقراء القرآن حملة سر الله المكنون، وحفظة علمه المخزون، خلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصته وجيرته وأصفياؤه، قال رسول الله: "إن لله أهلين منا، قالوا يا رسول الله: من هم؟ قال: هم أهل القرآن أهل الله وخاصته".

فما أحق من علم كتاب الله أن يزد جر بنواهيه، ويذكر ما شرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه، فإنه قد حمل أعباء الرسل، وصار شهيداً فى القيامة على من خالف من أهل الملل..

قال الله تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس) (البقرة: ١٤٣).

ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله: أوكد منها على من قصر عنه وجهله، ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً: كان القرآن عليه حجة وخصما لربه.

قال رسول الله ﷺ "القرآن حجة لك أو عليك".

فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه: أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته،ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه.. قال الله تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ) (صٓ:٢٩)، وقال عز وجل: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد:٢٤).

آراء المنصفين من علماء الغرب فى القرآن الكريم

بعد ما تكلمنا عن فضل القرآن وتعليمه، وتفهم معانيه، رأينا أن نذكر ما للقرآن من مكانة فى آراء المنصفين من علماء الغرب، حتى يتبين للذين يولون القرآن ظهورهم، ويتسللون لواذاً من أحكامه، يتبين لهم درجة العظمة التى شهد له بها قوم من المفكرين الغربيين وهاهى ذى آراؤهم ننقلها كما جاءت عنهم:

قال "إدوار جيبوته" من مشاهير مؤرخى الإنجليز:

"إن موحداً ذا دماغ مفكر، لن يتردد فى الاعتراف بوجهات نظر الإسلام فقد يكون الإسلام دينا أعلى من تطورنا الفكرى اليوم".

وقال المستشرق "كارلايل" وهو من أساتذة جامعة كمبردج: "إن علوية القرآن فى حقيقته العالية، فهو حافل بالعدل والإخلاص، والدعوة التى بلغها محمد إلى العالم: حق وحقيقة".

وقال ستنفاس مؤلف قاموس عربى إنجليزى.

"القرآن واحد من أهم الكتب التى انتقلت إلى الناس ليستفيدوا منها فهو سجل جامع لأسس الأخلاق والعقائد، الكفيلة للناس بالتوفيق والهداية فى حياتهم".

ويقول "ديود" مؤلف كتاب "روح الشرق":

"الإسلام يقدم براءة النجاة للتابعين، وسجل أخلاق للمتبوعين، ويؤيدهم بالدين".

ومن محاضرة عن الإسلام ألقاها "ما نويل كنج" سنة ١٩١٥ فى كنيسة البرستمان "وهو من أفضل علماء الإنجليز" قال: "إذا كان فى عالم الإلهام أمر يدعى وحياً وكان للوحى وجود كامل، فلن يشك فى أن القرآن كتاب منزل".

وجاء فى عدد ١٣ أبريل سنة ١٩٢٢ لجريدة نيرايست: "القرآن كتاب معجز، وخليق بالإعجاب من حيث التنزيل والترتيب.. إن لسان القرآن مخالف للساننا، وآراؤه تخالف آراءنا، ولكن إنكار قدره وقيمته وفضله وجماله من جهات كثيرة: يكون حرمانا من العقل والمنطق".

وقال المستشرق سيديو فى كتابه تاريخ بلاد العرب "القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة... فالفضيلة والرذيلة، والخير والشر، وماهية الأشياء الحقيقية، كلها مبينة فى القرآن... فقد أوحيت آياته إلى محمد ﷺ بحسب احتياجات الزمان وحوادث العهد".

ومن كتاب "حياة محمدﷺ" للفيلسوف الفرنسى "الكس لوازون":

"خلف محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة وسجل الأخلاق،وكتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية التى كشفت حديثاً، أو المخترعات الحديثة، مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية.. فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية، مع ما نبذله من المساعى للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية".

وقال الكاتب الأمريكى "واشنطن إيروفينج":

"يحوى القرآن أسمى الآراء وأنفعها وأكثرها إخلاصاً".

وعن المستشرق والفيلسوف الألمانى "يوجان يعقوب رايس".

"ما أن يتعلم بعض الناس قليلا من اللغة العربية حتى يقوموا بمحاولة الاستهزاء بالقرآن!ولو استمعوا إلى قدرة القرآن المثيرة الفصيحة والعظيمة المؤثرة وأحسوا باللسان المحير للألباب، الذى استخدمه الرسول حين أفهم القرآن أصحابه لوقعوا فى الحضرة الإلهية ساجدين صائحين يا رسول الله: أغثنا ولا تحرمنا من شرف الدخول فى أمتك".

أخى القارئ الكريم:

إن أى مسلم لا يتعلم القرآن ولا يفهم معانيه: قد فاته خير كثير يجب عليه أن يتداركه قبل فوات العمر، لما فى ذلك من الفضل العظيم له فى دنياه وأخرته.

فالقرآن فى الدنيا: هدى ورحمة، وفى الآخرة: شفيع وحجة. وقد جاء فى الحديث القدسى الجليل: "إنه إذا كان يوم القيامة قال الله أين جيرانى؟ فتقول الملائكة: ومن ذا الذى ينبغى أن يجاورك يارب العزة؟ فيقول جل فى علاه: أين قراء القرآن وعمار المساجد"؟!

وحسب من يقرأ القرآن فى أنه تجارة رابحة مع الله: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) (فاطر:٢٩-٣٠).

ويوم يشغلك القرآن وذكر الله عن مسألته تبارك وتعالى، فسيعطيك الله أفضل ما يعطى السائلين.

قال ﷺ فيما رواه عن رب العزة جل فى علاه: "من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين" أ هـ.

***

ولو علمت الخلائق ما فى القرآن من فضل:ما غفلوا عن تعليمه وتلاوته والعمل به !

وحسبك أيها المسلم فى هذا المقام قول رسول الله ﷺ "فضل كلام الله على سائر الكلام: كفضل الله على خلقه".

اقرأ يا أخى هذا الحديث متدبراً هل يستطيع أحد أن يدرك حقيقة فضل الله، وهو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق وصاحب العزة القائمة، والمملكة الدائمة؟.. كمالاته لا تتناهى لا يحصرها عد، ولا يحيط بها حد. فقارن بين فضل القرآن العظيم، وبين غيره من الكلام، لترى هذا الفضل قد بلغ من علو الرفعة مبلغاً لا يسامى.. إنه كفضل الله تعالى على خلقه. وإذا كانت الأمة الإسلامية فى هذه الأزمنة تعانى من الشدائد والأهوال ما يحرك العوالم ويسير الجبال، وإذا كانت الفتن التى تموج موج البحر عرضت على القلوب كما تعرض الحصر عوداً عوداً، فما المخرج من هذه الفتن وتلك الظلمات؟.

يقول على كرم الله وجهه سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قلت يا رسول الله: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره

أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا،من علم علمه: سبق،ومن قال به: صدق،ومن حكم به: عدل، ومن عمل به: أجر، ومن دعا إليه: هدى إلى صراط مستقيم".

نعم يا سيدى يا رسول الله: أن المسلمين لن يجدوا موئلاً يلجأون إليه ليعصمهم من الفتن الهوجاء، التى عصفت ريحها ببروقها ورعودها ورمالها إلا أن يلجأوا إلى كتاب الله، فهو موحد القلوب على العقيدة، والباعث فيها روح الأخوة.. خشعت له قلوب الجن عندما سمعوه من فم رسول الله ﷺ، فقالوا: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً) (الجن:١-٢).

بل لقد بلغ إكرام الجن لهذا الكتاب العزيز عندما سمعوه أنهم قالوا (أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الأحقاف:٢٩-٣١).

فيا ليت الإنس من المسلمين إذا حضروا القرآن: أنصتوا، وتأدبوا كما أنصت الجن!

إنك لتجد اللغو وتعاطى المشروبات، ولعب الشطرنج، والورق، والنرد وغير ذلك من ألوان العبث، تراه أثناء تلاوة القرآن الكريم! وما أخر

المسلمين، وأنزل بهم ما نزل، إلا بعدهم عن هذا القرآن: الذى من علم علمه، سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه: هدى إلى صراط مستقيم.

إنه المأدبة الكريمة لمن أراد أن يتعلم: فهو أستاذ المعلمين، ومرشد العباقرة الموجهين، وعميد جامعة الإسلام العظيمة، التى تخرج منها أساتذة الأخلاق، وأساطين الفكر.

روى ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم".

إن هذا القرآن الكريم هو حبل الله المتين، والشفاء النافع: عصمة لمن تمسك به، ونجاة من اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا تنقضى عجائبه، ولا يخلق عن رد، فاتلوه، فإن الله يؤجركم على تلاوته، بكل حرف عشر حسنات، أما إنى لا أقول "ألم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف"!

الترغيب فى تلاوة القرآن

ثم اسمع إلى ترغيب الرسول ﷺ فى قراءة سورة "البقرة" إذ يقول: "لا ألفين أحدكم واضعاً إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة، فإن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة، وأن أصفر البيوت من الخير: البيت الصفر من كتاب الله".

وفى رواية "إن هذا القرآن مأدبة[1] الله فمن دخل فيه فهو آمن".

فيا معشر المسلمين: أقبلوا على هذه المأدبة واملؤا القلوب من خيراتها وأضيئوا بيوتكم بنورها، فإن الشيطان يرتعد ويهتز خوفاً وفزعاً من البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة فطاردوه بها، وإن البيت الذى لا يقرأ فيه القرآن يكون صفرا، ومقفراً، وخالياً من البركة. وما أكثر الشياطين بشتى أنواعها: من إنس، وجن.. ما أكثرها فى البيوت، فسلطوا عليها مدفعية القرآن الثقيلة بعيدة المدى، فتصير هباء منثوراً.

تعلموا القرآن، وعلموه للناس، فقد أخبر رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف عن فضل هذا فقال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

وقال ﷺ: "مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن: مثل الأترجة ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن: مثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن: مثل الريحانة: ريحها طيب،

---

(١) المأدبة:- بضم الدال وفتحها معناها ((بالضم)) أنه الصنع الذى صنعه الله، ودعا الناس إليه.أما (بالفتح) فإنه يراد به الأدب. ولذا قيل: فتعلموا من مأدبته.

وطعمها مر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن: مثل الحنظلة، لا ريح لها وطعمها مر".

واعلم يا أخى أن المقصود بالقراءة فى هذا الحديث الشريف أن تكون قراءة مقرونة بالعمل.

ولقد صرح الإمام البخارى بهذا، فروى هذا الحديث بالرواية الآتية:

"مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به: كالأترجة، طعمها طيب، وريحها طيب، والمؤمن الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به: كالتمرة"... وذكر الحديث.

والحقيقة التى يجب أن تكون واضحة الرؤية أن من يقرأ القرآن ولا يعمل بما فيه: يكون موقفه أمام الله أدهى وأمر من غيره، خصوصاً إذا أمر ونهى دون أن يأتمر وينتهى.

وصدق القائل:

يـــا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبـــت منهم أموراً أنت تأتيها
تعيـــب دنـــيا وناســـاً عامليـــن لها وأنـــت أكـــثر منهم رغبة فيها

وإذا كان الرسول ﷺ قد شبه المؤمن القارئ العامل بالقرآن "كالأترجة" وهى السفرجلة، أو التفاحة – فذلك لطيب ريحها، وحلو طعمها.

وقد روى هشيم عن العوام بن حوشب أن أبا عبد الرحمن السلمى رضى عنه كان إذا ختم عليه أحد القرآن الكريم أجلسه بين يديه، ووضع يده على رأسه، وقال له يا هذا: اتق الله فما أعرف أحداً خيراً منك إن عملت بالذى علمت.

يرحمك الله يا أبا عبد الرحمن:

فما أغلى تلك الوصية التى كنت توصى بها من ختم القرآن، فإن شر البلاء ترك العمل.

أجل: يا أبا عبد الرحمن، يا أيها القائل لخاتم القرآن: يا هذا، اتق الله، فما أعرف أحداً خيراً منك إن عملت بالذى علمت.

فقد روى أن من آتاه الله القرآن، فقام به أناء الليل وأطراف النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة بعثه الله يوم القيامة مع السفرة الكرام.

قال سعد: "السفرة": الملائكة.

روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق: له أجران"! (التتعتع: هو التردد فى الكلام عياً وصعوبة).

وإنما كان له أجران: من حيث التلاوة، ومن حيث المشقة، ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأن القرآن كان متعتعاً عليه، ثم ترقى عن ذلك إلى أن أشبه الملائكة.

وهكذا تستمر المسيرة النبوية المباركة فى زحفها المقدس تذكر لنا فضل القرآن وقارئه... فهذا أبو هريرة رضى الله عنه يروى أن رسول الله ﷺ قال: "من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا: نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر: يسر الله عليه فى الدنيا، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون

كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله: لم يسرع به نسبه"!

وحسب أهل القرآن شرفاً وقدساً أن القرآن يقف من صاحبه يوم القيامة أكرم المواقف، يسأل الله تعالى أن يمنح صاحبه الفضل العظيم.

قال ﷺ "يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول يارب حله، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يارب زده، فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يارب ارض عنه، فيرضى عنه، فيقول له: إقرأ وارق، ويزداد بكل آية حسنة".

وفى رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ "يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها".

هنيئاً لك يا من أعطيت هذا الشفاء وهذا الدواء والغذاء والهدى والرحمة والموعظة والبشرى.

هنيئاً لك إذا عملت بما علمت إنك من ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما على وجه الأرض أحد خير منك.

يقول صلوات الله وسلامه عليه: "من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث نبوة، ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلث النبوة، ومن أعطى القرآن له فقد أعطى النبوة كلها، غير أنه لا يوحى إليه. ويقال له يوم القيامة: رأ وارق، فيقرأ آية ويصعد درجة، حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال

له اقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك؟ فإذا فى يديه اليمنى الخلد وفى اليسر النعيم".

صلى عليك الله يا علم الهدى، يا من قال لك ربك: "وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهودا* ومن الليل فتهجد به نافلة لك، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً".

ويا من قال لك: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) (المزمل:١-٥).

فو الله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد، ولو علمنا بما فيه لرفرفت راية الإسلام على كل بلد، ولو علمنا فضله ما غفلنا ! يقول صلوات ربي وسلامه عليه "من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار".!

وقالت أم الدرداء: "دخلت على عائشة رضى الله عنها: فقلت لها ه فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأ ممن دخل الجنة؟ فقالت عائش رضى الله عنها: إن عدد آى القرآن على عدد درج الجنة، فليس أحد دخ الجنة أفضل ممن قرأ القرآن".

وقال ابن عباس رضى الله عنه "من قرأ القرآن واتبع ما فيه: هداه ا من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب" وذلك لأن الله تبارك وتعال يقول: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى) (طه: ١٢٣).

قال ابن عباس: فضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة.

إن فضل القرآن كما يشمل القارئ: يشمل المستمع الذى عرف للاستماع حقه وأدبه، قال الليث رضى الله عنه: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن.

ويقول الله جل ذكره (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأعراف:٢٠٤).

ومن فضل قراءة القرآن يقول ﷺ "من قام بعشر آيات: لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية: كتب من القانتين، ومن قام بألف آية: كتب من المقنطرين".

وينبغى لصاحب القرآن أن يطلبه بإخلاص لله تعالى، وأن يداوم على قراءته، خشية أن ينساه.. فقد قال ﷺ "مثل صاحب القرآن: كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها: أمسكها، وإن أطلقها: ذهبت".

وينبغى له أن يكون لله حامداً، ولنعمه شاكراً، وله ذاكراً، وعليه متوكلا، وبه مستعيناً، وإليه راغباً، وبه معتصما، وللموت ذاكرا، وله مستعداً.

وينبغى أن يكون خائفاً من ذنبه، راجياً عفو ربه، ويكون الخوف فى حال صحته، أغلب عليه، إذ لا يعلم بما يختم له. ويكون الرجاء عند حضور أجله: أقوى فى نفسه، لحسن الظن بالله.

وينبغى لصاحب القرآن أن يكون أهم أموره لديه: الورع فى دينه، واستعمال تقوى الله، ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه.

وقال ابن مسعود: ينبغى لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون وبنهاره إذ الناس مستيقظون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون وبحزنه إذ الناس يفرحون!

وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما: لا ينبغى لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض ولا يجهل مع من يجهل ولكن يعفو ويصفح لأن فى جوفه كلام الله تعالى.

وينبغى له أن يأخذ نفسه بالتباعد عن طرق الشبهات، ويقل الضحك والكلام فى مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار.

وينبغى له أن يتواضع للفقراء، ويتجنب الكبر و الإعجاب، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويترك الجدال والمراء ويأخذ نفسه بالرفق والأدب.

وينبغى له أن يكون ممن يؤمن شره ويرجى خيره، ويسلم من ضرره، وألا يسمع ممن نم عنده، ويصاحب من يعاونه على الخير، ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق ويزينه ولا يشينه.

وينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو.

فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب، وهو لا يفهم ما يتلو !! فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟!

وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلو ولا يدريه.

وقال الضحاك فى قوله تعالى (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ) (آل عمران: ٧٩). قال: حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيها.

فطوبى لك ثم طوبى يا حامل القرآن وعاملا به!

إن رسول الله ﷺ قد جعلك فى مرتبة رفيعة، وخلع عليك أوسمة بديعة فقال: "من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة: الإمام المقسط، وذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافى عنه".

وقال أبو عمر فى حملة القرآن: هم العالمون بأحكامه وحلاله وحرامه والعاملون بما فيه.

روى أنس أن النبى ﷺ قال: "القرآن أفضل من كل شىء، فمن وقر القرآن: فقد وقر الله، ومن استخف بالقرآن: فقد استخف بحق الله تعالى.. حملة القرآن: هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله، الملبسون نور الله فمن والاهم: فقد والى الله، ومن عاداهم: فقد استخف بحق الله تعالى".

فوا أسفاه!! ما أشد غفلة المسلمين عن كتاب الله، وما أبعدهم عن تعاليمه العالية!

إن هذا الكتاب كتاب الله وصفه الله بالعزة، فقال: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) (فصلت: ٤١). ووصف الشهر الذى أنزل فيه بأنه ما عظم إلا لهذا القرآن، فقال (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) (البقرة:١٨٥)، وجعل

الليلة التى نزل فيها خيراً من ألف شهر فقال: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) (القدر:١-٣) وجعل مكانته فى أم الكتاب علوا وحكمة فقال: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف:٣).

وجمع له وصفين من أجل الصفات فى آية.. جعله روحا يحيى الموت ونوراً يخرج من غياهب الظلمات فقال جل شأنه (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) (الشورى: ٥٢).

حرمات القرآن

فهل علمت يا حامل القرآن وقارئه ما حرمة هذا الكتاب؟ وما يلزمك من أدب عند قراءته؟ إليك ما يلى:

قال الحكيم الترمذى أبو عبد الله فى ((نوادر الأصول)):

فمن حرمه القرآن ألا يمسه القارىء إلا طاهراً، ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة ومن حرمته أن يستاك ويتخلل فيطيب فمه إذ هو طريقه.. قال يزيد بن أبى مالك: إن أفواهكم طرق القرآن فطهروها، ونظفوها ما استطعتم.

ومن حرمته أن يلبس نظيفاً كما يلبس للدخول على الأمير، لأنه مناج ربه ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته.

وكان (أبو العالية) إذا قرأ: اعتم: أى لبس العمامة، ولبس، وارتدى، واستقبل القبلة.

ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع:

روى شعبة عن أبى حمزة عن ابن عباس: أنه كان يكون بين يديه ماء: إذا تنخع تمضمض، ثم أخذ فى الذكر، وكان كلما تنخع تمضمض.

ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة، لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج له، والتثاؤب من الشيطان.

قال مجاهد: إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فامسك عن القراءة تعظيما، حتى يذهب تثاؤبك.

قال عكرمة: يريد أن فى ذلك الفعل إجلالا للقرآن.

ومن حرمته أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند ابتدائه للقراءة، ويقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم إن كان إبتداء قراءته من أول السورة أومن حيث بلغ..

ومن حرمته إذا أخذ فى القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة.

ومن حرمته أن يخلو بقراءته، حتى لا يقطع عليه أحد بكلام، فيخلطه بجوابه، لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذى استعاذ منه فى البدء.

ومن حرمته أن يقرأه على تؤدة و ترسيل وترتيل.

ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه، حتى يعقل ما يخاطب به.

ومن حرمته أن يقف عند آية ((الوعيد))، فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله، وأن يقف على آية ((الوعد)) فيستجير بالله منه.

ومن حرمته أن يقف على أمثاله، فيمثلها.

ومن حرمته أن يلتمس غرائبه.

ومن حرمته أن يؤدى لكل حرف حقه من الأداء، حتى يبرز الكلام باللفظ تماماً فإن له بكل حرف عشر حسنات.

ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ويشهد بالبلاغ لرسولهﷺ ويشهد على ذلك أنه حق فيقول: "صدقت ربنا وبلغ رسولك، ونحن على

ذلك من الشاهدين اللهم اجعلنا من شهداء الحق القائمين بالقسط" ثم يدعو بما شاء من الدعاء.

ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأ فإنه روى عن رسول الله ﷺ أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئاً فأمره أن يقرأ على السور. أو كما قال.

ومن حرمته إذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشوراً وألا يضع فوقه شيئاً من الكتب، حتى يكون أبداً عالياً لسائر الكتب: علماً كان أغيره.

ومن حرمته أن يضعه فى حجره إذا قرأه، أو على شىء بين يديه، ولا يضعه بالأرض.

ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق، ولكن يغسله بالماء.

ومن حرمته إذا غسله بالماء أن يتوقى النجاسات من المواضع التى توطأ، فإن لتلك الغسالة حرمة، وكان من قبلنا من السلف الصالح يستشفى بغسالته.

ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب، فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالماء.

ومن حرمته ألا يخلى يوماً من أيامه من النظر فى المصحف ولو مرة. وكان أبو موسى يقول: إنى لأستحى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرة!

ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه، فإن العين تؤدى إلى النفس، وبين النفس والصدر حجاب، والقرآن فى الصدر: فإذا قرأه عن ظهر قلب، فإنما يسمع أذنه، فتؤدى إلى النفس، فإذا نظر فى الخط: كانت العين والأذن

قد اشتركتا فى الأداء، وذلك حرى للأداء، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن.

روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى: قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطوا أعينكم حظها من العبادة". قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: "النظر فى المصحف والتفكر فيه، والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عبادة ابن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: "أفضل عبادة أمتى: قراءة القرآن نظراً".

ومن حرمته ألا يتأوله عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا.. حدث عمرو بن زياد الحنظلى، قال حدثنا هشيم بن بشير، عن المغيرة عن إبراهيم، قال: كان يكره أن يتأول شىء من القرآن عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا. والتأول مثل قولك للرجل إذا جاءك: جئت على قدر يا موسى، ومثل قوله تعالى: (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) (الحاقة:٢٤)، يقال هذا عند حضور الطعام.. وأشباه ذلك.

ومن حرمته ألا يتلى منكوساً، كفعل معلمى الصبيان، يلتمس أحدهم بذلك أن يرى الحذق من نفسه والمهارة، فإن ذلك مخالفة.

ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء، كلحون أهل الفسق، ولا بترجيع النصارى، ولا نوح الرهبانية، فإن ذلك كله زيغ، وقد تقدم ذكره.

ومن حرمته أن يجلل تخطيطه إذا خطه.

عن أبى حكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة، فمر على رضى الله عنه فنظر إلى كتابته، فقال له: أجل قلمك، فأخذت القلم فقططته من طرفه

قطا، ثم كتبت وعلى رضى الله عنه قائم ينظر إلى كتابتى، فقال،هكذا، نوره كما نوره الله عز وجل !

ومن حرمته ألا يجهر بعض القارئين على بعض فى القراءة.

ومن حرمته ألا يمارى ولا يجادل فيه فى القراءات، ولا يقول لصاحبه: ليس هكذا هو، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن، فيكون قد جحد كتاب الله.

ومن حرمته ألا يقرأ فى الأسواق، ولا فى مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء.. ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً؟ ! هذا لمروره بنفسه، فكيف مرور القرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء؟!

ومن حرمته ألا يتوسد المصحف، ولا يعتمد عليه، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله.

ومن حرمته ألا يصغر المصحف: روى الأعمش عن إبراهيم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: لا يصغر المصحف، قلت: روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفاً صغيراً فى يد رجل فقال: من كتبه قال: أنا فضربه بالدرة وقال: عظموا القرآن.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يقال . مسيجد أو مصيحف

ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه .

ومن حرمته ألا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب، فتخلط به زينة الدنيا: روى مغيرة عن إبراهيم: أنه كان يكره أن يحلى المصحف أو يكتب

بالذهب، أو يعلم عند رؤوس الآى، أو يصغر. وعن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ "إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم، فالدبار" الهلاك (عليكم) وقال ابن عباس – وقد رأى مصحفا قد زين بفضة– تغرون به السارق وزينته فى جوفه.

ومن حرمته ألا يكتب على الأرض، ولا على حائط، كما يفعل ببعض المساجد المحدثة: حدثنا محمد بن على الشيقى، عن أبيه، عن عبد الله بن سفيان. عن محمد بن الزبير قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يحدث قال: مر رسول الله ﷺ بكتاب فى أرض، فقال لشابٍ من هذيل: (ماهذا؟) قال: من كتاب الله، كتبه يهودى، فقال (لعن الله من فعل هذا، ولا تضعوا كتاب الله إلا موضعه)،قال محمد بن الزبير: رأى عمر بن عبد العزيز ابناً له يكتب القرآن على حائط، فضربه.

ومن حرمته أن يفتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور.

ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا ختم: يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات، لئلا يكون فى هيئة المهجور.

وروى ابن عباس قال: جاء رجل فقال يا رسول الله أى العمل أفضل؟ قال: "عليك بالحال المرتحل (قال: وما الحال المرتحل؟ قال: صاحب القرآن، يضرب من أوله حتى يبلغ آخره، ثم يضرب من أوله، كلما حل ارتحل".

(قلت): ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله: ذكر أبو بكر الأنبارى، أنبأنا إدريس، حدثنا خلف.حدثنا وكيع عن مسمر عن قتادة أن

أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا. وأخبرنا إدريس،حدثنا خلف، حدثنا جرير عن منصور،عن الحكم قال: كان مجاهد وعبده بن أبى لبابة وقوم يعرضون المصاحف، فإذا أرادوا أن يختموا: وجهوا إلينا احضرونا، فإذا الرحمة تنزل عند ختم القرآن ! وأخبرنا إدريس حدثنا خلف، حدثنا هشيم العوام، عن إبراهيم عن اليمنى قال: من ختم القرآن أول النهار: صلت عليه الملائكة حتى يمسى، ومن ختم أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح.. قال فكانوا يستحبون أن يختموا أول الليل وأول النهار.

(قلت) ومن حرمته ألا يقال: سورة صغيرة، وكره أبو العالية أن يقال: سورة صغيرة، أو كبيرة. وقال لمن قالها: أنت أصغر منها، وأما القرآن فكله عظيم. ذكره مكى رحمه الله.

(قلت): وقد روى أبو دواد ما يعارض هذا من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال: ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله ﷺ يؤم بها الناس فى الصلاة.

وبعد:أعلمت يا أخى هذه الآداب. وتلك الحرمات؟

وإذا كنت علمتها: فهل عملت بها؟

والله إن القرآن الكريم بيننا ونحن فى مسيس الحاجة إليه!

فهلا عرفنا له حقه؟ وهل عملنا بقول رسول الله ﷺ: "قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب"..؟ وهلا عملنا بقوله: "اقرأوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا"؟

إن فى القرآن آية تسمى (بكاءة المؤمنين) وهى قول الله تبارك وتعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (الجاثية:٢١)، كانوا إذا قرئت عليهم: فاضت أعينهم بالدمع، يقول كل منهم:ترى: من أى الفريقين أنا! أمن الذين اجترحوا السيئات، أم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟

لقد ظل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ونفسه تعاف الطعام، لما نزل عليه قوله تعالى فى وصف أهل النار (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً) (المزمل:١٢-١٣)، وإن أمير المؤمنين ((عمر)) وهو جبار الجاهلية، وعملاق الإسلام خر مغشياً عليه، وظل شهراً مريضاً عندما سمع القارىء يقرأ سورة (والطور) حتى وصل إلى قوله تعالى: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) (الطور:٧-٨)، والحسن البصرى رضى الله عنه طلب شربة ماء، فلما شربها بكى بكاء مراً فقيل له يا تقى الدين: ما أبكاك؟ قال تذكرت قول الله تعالى (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) (الأعراف: ٥٠)؟!

***

أخى القارئ الكريم:

هل علمت ما سبق؟ وهل عملت بما علمت ؟!

إذا كنت لا تدرى فتلك مصيبة، وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم ! !

ثم عجبت لثلاثة:

عجبت لمؤمل فى الدنيا والموت يطلبه، وعجبت لغافل وليس بمغفول عنه، وعجبت لضاحك ملء فيه (فمه) لا يدرى: الله راض عنه، أم ساخط عليه؟ وبكيت لثلاثة: لفراق الأحبة: محمد وصحبه،وبكيت لهول المطلع عند سكرات الموت، وبكيت للوقوف بين يدى الله، ولا أدرى: أينطلق بى إلى الجنة أم إلى النار؟!! (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) (الأنبياء: ١-٣).

فيا أخى: قم سلسل الدمع حزناً على هذا العمر الضائع، وقم مزق الضلوع كمداً على فساد القلوب الشائع.

أما آن للقلوب أن تخشع؟ أما آن للنفوس أن تخضع؟ أما آن للعيون أن تدمع؟ وأما آن للآذان أن تسمع، وأما آن للأجسام أن تسجد وأن تركع؟!

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) (الحديد:١٦)؟ اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع.

دعوى باطلة

من الدعاوى التى يشنها المستشرقون،وأذنابهم من المستغربين، ومن سار فى فلكهم، ولف لفهم من ضعاف العقول والمخدوعين-قولهم:إن الاقتصار على القرآن يكفى، دون الاحتياج إلى السنة.. فما جاء فى القرآن: اتبعناه، وليس بنا حاجة إلى اتباع ما جاء فى السنة!! والمقصود بالسنة: هو كل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير. وهؤلاء الذين ينادون بهذه الدعوى المسمومة: لهم من ورائها غرض وهدف، ذلك أنهم لما عجزوا وخابت حيلهم فى أن يوجهوا أى طعن إلى القرآن العظيم- وهو الأصل الأول فى التشريع- أرادوا أن يثيروا التراب على السنة المطهرة! والواقع أن مثل هؤلاء: كمثل قوم أردوا أن يثيروا التراب على السماء، فأثاروه على أنفسهم، وبقيت السماء ضاحكة السن، بسامة المحيا.

وقد بلغ من جرأة بعض هؤلاء: أنهم تطاولوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين اختارهم الله لصحبته، والذين حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من التطاول عليهم فقال: "الله الله فى أصحابى"، وقال: "لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا: ما بلغ مد أحدهم نصيفه.. وقال: "خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

فكيف يجرؤ هؤلاء أن يطاولوا السماء، أو أن يمدوا إلى الشمس يدا شلاء؟!

إن دعوى هؤلاء فى عدم الأخذ بالسنة: ظاهرة البطلان، بل إن بطلانها من بدائه الأمور.

ماذا يقولون فى قوله تعالى وهو يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (النحل: ٤٤)؟ وهل يكون التبين إلا بالسنة؟ إذ هى المذكرة التفسيرية لكتاب الله الكريم!

ماذا يقول فى قوله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر: ٧)؟

فكيف يطبقون هذه الآية، وقد عطلوا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم؟وماذا يقولون فى الآيات التى قرنت طاعة الله بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) (النساء: ٥٩)، (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (النساء: ٨٠)، (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) (الأنفال: ٤٦)؟!

وهل طاعة الرسول إلا اتباع سنته؟. فكيف يطيعونه وقد عطلوا وظيفة السنة المطهرة؟

وماذا يفعلون فى هذه الآية الكريمة التى جعلت محبة الله متوقفة على اتباع رسوله، وهى قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (آل عمران: ٣١)؟.

وكيف يتبعونه وقد عطلوا سنته؟

ماذا يقولون فى الآية الكريمة التى حذرت من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وهى قوله تعالى: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (النور: ٦٣). وهل أمر الرسول إلا سنته؟ كيف يتحقق لهم ذلك وقد عطلوا سنته؟ لقد قال عمر رضى الله عنه

للرسول صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ! إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا.. أفنكتب بعضها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ يعنى أمتحيرون؟" ثم قال: "لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى"!

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص لرسول الله: يا رسول الله:أنك بشر تغضب وترضى، أفنكتب عنك وقت الغضب؟ فقال له: "اكتب، فوالله ما خرج منه إلا الحق"، وأشار إلى فيه (فمه) الشريف.

ولقد تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهؤلاء النفر المارقين، فقال فيما رواه أبو داوود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتهم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه"، ثم يعقب على هذا الحديث بأن هناك أشياء قد حرمت بطرق السنة، فيقول: "ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السباع".

فهذه أشياء حرم الشارع أكل لحمها، وجاء تحريمها عن طريق السنة.

فإذا عطلنا وظيفة السنة: وقفنا فيما حرم الله تعالى !

صلى عليك الله يا سيدى يا رسول الله، يا من قال لك ربك: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى: ٥٢)، وقال فى حقك: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب: ٢١).

ذكر ابن عبد البر فى كتاب ((العلم)) عن عبد الرحمن بن يزيد، أنه رأى محرما بالحج عليه ثيابه، فنهى المحرم عن لبس الثياب - إذ أن الرجل أحرم يتجرد من المخيط ويلبس ما يسمى بالرداء والإزار - فقال له الرجل: آتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى، فقرأ عليه قول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر: ٧).

وذكروا أن (طاووسًا) رحمه الله كان يصلى ركعتين بعد العصر، فقال له ابن عباس: اتركهما. "وإنما نهى عنهما" كيلا تتخذا سنة.

وقال ابن عباس: قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر، فلا أدرى: أتعذب عليهما أم نؤجر؟

وقصد بالصلاة بعد العصر : النافلة، لأن الله تعالى قال: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً) (الأحزاب:٣٦).

قال الإمام أحمد بن حنبل: إن السنة تفسر الكتاب وتبينه.

فكيف سولت لهؤلاء نفوسهم أن يقولوا بهذه الدعاوى الباطلة؟! ألا وإن من أهمها: بيان المجمل فى الكتاب: كبيان الصلوات الخمس فى مواقيتها، وركوعها، وسجودها، وسائر أحكامها.. وكبيان مقدار الزكاة ووقتها، وبيان الأموال التى تخرج عنها وكبيان مناسك الحج. لقد قال صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وهو يخطبهم: "خذوا عنى مناسككم" وقال صلوات الله وسلامه عليه "صلوا كما رأيتمونى أصلى". وروى ابن المبارك رضى الله عنه، عن عمران بن حصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق.. أتجد الظهر

فى كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد الصلاة، والزكاة، ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا فى كتاب الله مفسرا، إن السنة قد جاءت لتفسره. وهذه وظيفة أخرى قامت بها السنة: كإثبات أحكام ثبتت أحكامها بطريق السنة وزادت على ما جاء فى القرآن الكريم.. كتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها أ ابنة أخيها، أو ابنة اختها، والقضاء باليمين مع الشاهد، وغير ذلك من الأمور التى يطول ذكرها. فلو أننا عطلنا السنة، فكيف يفهم حكم هذه الأشياء؟

أعلمت إلى أى مدى يقصد هؤلاء المستشرقون- ومن اتبعهم- بهذه الدعوى الخبيثة، التى تتعمد وتقصد هدم الإسلام وتفويض بنيانه؟.

كيف لا نأخذ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو النبى المعصوم، الذى زكى الله عقله فقال: (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى) (النجم:٢)، وزكى لسانه فقال (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) (النجم:٣) وزكى شرعه فقال (إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى) (النجم:٤) وزكى معلمه فقال (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) (النجم:٥) وزكى فؤاده فقال (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) (النجم:١١) وزكى بصره فقال (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) (النجم:١٧) وزكاه كله فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:٤)...

أعرف للقرآن حقه

إياك والرياْ بالعلم أو العمل، فإنه يحبط الأجر، وإن مثله كمثل صفوان عليه تراب، فأصابه وابل، فتركه صلدا.. قال جل فى علاه: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف: ١١٠). ومهما كانت الأعمال كبيرة وضخمة: فإن الرياء إذا دخلها نخر عظامها، فتصبح ولا فائدة منها، ولا أجر عليها.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال فيم عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جرىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فحسب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيه لك، قال كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ثم قال صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة: أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة".

إن هذا جزاء تكاد تنخلع له القلوب، وتنفطر له الأفئدة، وتقشعر منه الأبدان، وتشيب من هوْله الولدان.. فهذه كلها من جليل الأعمال: قتل فى

الميدان، وانفاق مال، وعلم وقرآن،ولكنها لما دخلها ذلك الداء العضال – وهو الرياء– فتك بها بسمة الزعاف، فأصبح مثلها مع الرياء (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (آل عمران: ١١٧).

قال ابن عبد البر: وهذا الحديث فيمن لم يرد بعلمه وعمله وجه الله تعالى.

يا أخي: إذا عملت عملا فضع هذا الحديث الشريف نصب عينيك حتى تعرف حقيقة الإخلاص،وحتى يثمر العمل، ويكون عند الله مقبولا، وإلا ضاع ثوابه وحل عقابه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "من طلب العلم لغير الله، أو أراد به غير الله، فليتبوأ مقعده من النار".

وتأمل قوله تعالى: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) (الزمر: ٢)، وقوله جل شأنه: (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) (البينة: ٥)، وقوله سبحانه: (أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) (الزمر: ٣).

ولقد تنبأ النبى صلى الله عليه وسلم بقوم سيراءون بالعلم والقرآن: روى ابن المبارك عن العباس بن عبد الطلب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبارك تعالى، ثم يأتى أقوام يقرأون القرآن، فإذا قرأوه قالوا من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ التفت إلى أصحابه وقال: هل ترون فى أولئك من خير؟ قالوا: لا، قال:أولئك معكم، وأولئك من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار"!.

يا أخى: اقصد بالقرآن وجه الله، وأخلص قلبك له فى علاه، واحذر أن تقصد بذلك غير وجه الله:

فقد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من تعلم علما مما ينبغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا: لم يجد عرف الجنة يوم القيامة"، وقيل: "عرف الجنة": ريحها، ويقول رضى الله عنه أيضا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تعوذوا بالله من جب الحزن، قالوا يا رسول الله: وما جب الحزن؟ قال: واد فى جهنم، تتعوذ منه جهنم فى كل يوم مائة مرة، قيل يا رسول الله ومن يدخله؟ قال: القراء المراءون بعملهم".

يا حامل القرآن ! إياك ومعصية الله، فإن هذه المعصية تكون معك فى النار فى صورة الحية، فاحذر ذلك، واعلم أن هذا المصير رهيب وعصيب.

فقد جاء فى كتاب ((أسد بن موسى)) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: و(إن فى جهنم لواديا، إن جهنم لتتعوذ من شر ذلك الوادى كل يوم سبع مرات، وإن فى ذلك الوادى لجبا، إن جهنم وذلك الوادى ليتعوذان بالله من شر ذلك الجب، وإن فى الجب لحية، إن جهنم والوادى والجب يتعوذون بالله من شر تلك الحية سبع مرات: أعدها الله للأشقياء من حملة القرآن الذين يعصون الله).

* * *

فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقى الله فى نفسه ويخلص العمل لله، فإن كان صدر منه شىء مما يكره، فليبادر بالتوبة والإنابة،ليبدأ بالإخلاص فى التوبة والعمل، فحامل القرآن يلزمه من التحفظ أكثر مما يلزم غيره، كما أن له من الأجر اكثر مما لغيره.

روى الترمذى عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنزل الله فى بعض الكتب، أو أوصى إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين، ويتعلمون،لغير العلم، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش، قلوبهم قلب الذئاب، وألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر: إياى يخادعون ! وبى يستهزن ! لأتيحنهم فتنة تذر الحلم فيهم حيران".

أيها المرائى بعمله: على من ينطلى هذا الرياء؟ أعلى علام الغيوب،الذى يعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور، القائل فى كتابه: (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) (طه:٧)، والقائل: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (الزخرف:٨٠)، (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك:١٣-١٤)، والقائل: (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الجاثية:٢٩)؟!

الله يدرى كل ما تضمر ... علم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشر
يا رب ! يا عالم السر والنجوى ... يا كاشف الضر والبلوى!
يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل

ويـــرى نـــياط عروقها فى نحرها والمـــخ فـــى تلك العظام النحل
ويـــرى ويســـمع مـــا يرى مادونها فـــى قـــاع بحر زاخر متجندل.

فقد روى الإمام الطبرى فى كتابه ((آداب النفوس)) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: "لاتخادع الله، فإنه من يخادع الله، يخدعه الله، ونفسه يخدع لو يشعر، قالوا يا رسول الله: وكيف يخادع الله؟ قال: تعمل بما أمرك الله به، وتطلب به غيره. واتقوا الرياء فإنه الشرك، وإن المرائي يدعى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب اليها: يا كافر، يا فاجر، يا غادر،يا خاسر، ضل عملك، وبطل أجرك، فلا خلاق لك اليوم، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع".

وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: كيف أنام إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتتخذ سنة مبتدعة يجرى عليها الناس، فإذا غير منها شيء قيل: قد عبرت السنة، قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثر قراؤكم، وقل فقهاؤكم، وكثر أمراؤكم، وقل أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير الدين".

وقال سفيان بن عيينة: بلغنا عن ابن عباس أنه قال: لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهم الله، ولكن طلبوا به الدنيا، فأبغضهم الله، وهانوا على الناس.

وإننى أوصى من يقرأ القرآن أن يلتزم الخشوع فى قراءته، والإخلاص فى قلبه، فقد أصبحت قراءة القرآن تجرى حسب التوقعات والأنغام، وأصبح المستمع لا يستمع القرآن بمعناه، إنما يستمع أنغاما تخرج به عن جلاله وعظمته، تلك العظمة التى جعلت عمر بن الخطاب رضى الله عنه

لما قرأ صدر سورة ((طه)) انتفض جسمه كما ينتفض العصفور إذا بلله ماء المطر، وكأن الآيات قد تمثلت أمامه ملائكة حملته باجنحتها إلى ما فوق قبة الفلك، فخرج من بيته يسعى وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم!.

تغيرت هذه الحال، وأصبح المستمعون إذا سمعوا آيات الوعيد التى تدك الجبال – مثل قوله تعالى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) (الحاقة:٣٠-٣١) – تراهم يطربون ويصيحون ويطلبون من القارىء أن يزيد قائلين له "اللهم زيدك".

ولست أدرى: من أى شىء يزيده؟

لا حول ولا قوة إلا بالله.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولقد تنبأ رسول الله بكل هذا.

فقد ذكر الإمام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذى الحكيم فى ((نوادر الأصول)) من حديث حذيفة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابين. وسيجىء بعدى قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم".

والمراد بلحون أهل الكتابين من اليهود النصارى: هو التطريب الذى يخرج الآيات عن أحكامها. ((والترجيع)): هو ترديد الآيات بقصد التطريب، وهو ما يفعله الملحنون فى الأغانى على آلات الموسيقى.

فأين الذين كانوا (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) (المائدة: ٨٣)؟ وأين الذين كانوا (إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً) (الإسراء:١٠٧-١٠٩). وأين الذين نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلبهم منحية على أجزاء من القرآن، كلما مر أحدهم بآية تبشر بالجنة: بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية تندر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه؟!

أخى: اقرأ القرآن كما أمر الله تبارك تعالى فى قوله: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) (المزمل: ٤) والترتيل: هو التأنى فيه، والتمهل، وتبين الحروف والحركات. وقد سئلت أم سلمة رضى الله عنها عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته فقالت: "مالكم صلاته؟ ثم نعتت قراءته - أى وصفتها - فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفًا" !! أخرجه النسائى وأبوداود و الترمذى.

اللهم ارزقنا تلاوة كتابك الكريم حق تلاوته، اجعلنا يا ربنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب.

شهادة الخصوم للقرآن

نختم الكلام عن هذا الباب بشهادة الخصوم للقرآن العظيم:

يقول الدكتور "موريس الفرنسى": "إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبنى البشر، وإنه كتاب لا ريب فيه".

ويقول "هنرى دى كاسترى": "إن القرآن ليستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب، ولقد نزل على محمد دليلا على صدق رسالته"

ويقول "الكس لوازون": "خلف محمد للعالم كتابا هو آية وسجل الأخلاق، وهو كتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثًا أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية". أما "واشنطن ارفنج" فيقول: "يحوى القرآن أسمى المبادىء وأكثرها فائدة وإخلاصا"!

ويقول "جوته": "إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية".

ومما قاله "ليون": "حسب القرآن جلالا ومجدا: أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه: لم تستطع أن تجفف - ولو بعض الشيء- من أسلوبه الذى لا يزال غضا: كأن عهده بالوجود أمس".

ويقول "جيمى متشيز" فى مقال له: "لعل القرآن هو أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم، وهو - بكل تأكيد - أيسرها حفظا،وأشدها أثرا فى الحياة اليومية لمن يؤمن به، فليس طويلا كالعهد القديم، وهو مكتوب بأسلوب رفيع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر. ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه، وتزداد إيمانا وسموا، وأوزانه ومقاطعة كثيرا ما قورنت بأصداء

الطبيعة.. ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملى فيما يتعلق بالمعاملات بين الناس، وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد وبين التعاليم العملية، جعل القرآن كتابا فريدا، ووحدة متماسكة"!

* * *

هذا هو القرآن الكريم، معجزة نبى الإسلام، وصدق الله العظيم الذى يقول عنه: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:٢٣-٢٤)

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) (النساء:٨٢) (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (الإسراء:٨٨).

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر:٢١).

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (يونس:٣٧-٣٨).

حاجة العالم إلى الإسلام

قال الله تعالى يخاطب السيد الجليل محمدا صلى الله عليه وسلم: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء :١٠٧)

وقال صلوات الله وسلامه عليه متحدثا بنعمة الله عليه: "إنما أنا رحمة مهداة"

وقال فيلسوف الإسلام (اقبال).

إذا الإيمـــان ضـــاع، فـــلا أمـــان ولا دنـــيا لمـــن لـــم يحى دينا
ومـــن رضـــى الحـــياة بغـــير دين فقـــد جعـــل الفـــناء لهـــا قرينا

لما أراد الله تعالى أن ينقذ البشرية من ظلمات الحياة الداكنة، بعد ما طال الليل المدهم، فأصبح الذئب راعيا، والخصم العنيد قاضيا، وصار المعروف منكرا، والمنكر معروفا، وعمت الفوضى فى جميع أرجاء الدنيا، وعربد الباطل فى عرصاتها.. بعد هذا كله: أذن الله للفجر أن يطلع، وللضباب أن ينقشع.. فكانت بعثة السيد الجليل محمد صلى الله عليه وسلم الذى رفع راية العدل والطهر والتوحيد، والإصلاح والإخلاص والمحبة، والذى أعلن فى سمع الزمان أن قوة التوحيد لابد أن تمحو ظلمات الباطل، وأن عدالة الإسلام لابد أن تزيل ظلم الجاهلية.

جاء ليطهر الأرض من أشنع جريمة عرفها التاريخ.. ألا وهى جريمة الظلم بأشمل معانيه، إذا أنه الداء الوبيل الذى قوضت به الأمم العاتية، هلكت بسببه الجبابرة، ذلت بارتكابه أعناق القياصرة والأكاشرة.

جاء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليقرأ على البشرية هذه الآيات: (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (يونس:٤٤)، (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً) (النساء:٤٠)، (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء:٤٧).

وحذر الإسلام من عاقبة الظلم، فجاء فى القرآن العظيم: (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) (يونس: ١٣)، (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً) (الكهف:٥٩)، (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود:١١٧)، (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) (الحج:٤٥)، (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) (الحج:٤٨)، (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) (القصص:٥٩)، (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الشعراء:١٠)، (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (القصص:٢١)، (فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (القصص: ٢٥).

يا أخا الإسلام:

احذر من المظلوم سهما صائبا ... واعلم بأن دعاءه لا يحجب

وإذا رميت من الزمان بشدة ... وأصابك الأمر الأشد الأصعب

فاضـــرع لـــربك إنـــه أدنـــى لمن يدعـــوه من حبل الوريد وأقرب

وما أجمل ما قالته امرأة فرعون المؤمنة، حين اشتدت عليها وطأة الظلم (إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (التحريم: ١١).

ما أصعب دعوة المظلوم على ظالمه:

لا تظلمـــن إذا مـــا كنـــت مقـــتدرا فـــالظلم تـــرجع عقباه إلى الندم
تـــنام عينـــيك، والمظلـــوم منتـــبه يدعـــو عليك، وعين الله لم تنم!

* * *

ما أشد حاجة الناس إلى العدالة الاجتماعية، ولن يوجد من يحققها أفضل من الإسلام الذى تردد آيات كتابه على سمع الدنيا هذا القول الكريم: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) (الأعراف: ٩٦)، (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً) (الجن:١٦).

أجل ! ما أشد حاجة البشرية إلى الإسلام الذى أذاع رسوله صلى الله عليه وسلم هذا البيان عن ربه جل فى علاه:

"يا عبادى: إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته محرما، فلا تظالموا، يا عبادى كلكم: ضال إلا من هديته، فاستهدونى أهدكم يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم.

يا عبادى: كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسونى أكسكم.

يا عبادى: إنكم تخطئون بالليل والنهار أنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفرونى أغفرلكم. يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم: مازاد ذلك فى ملكى شيئا.

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم: ما نقص ذلك من ملكى شيئا.

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته: ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم أياها، فمن جد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه".

ولمكانة هذا الحديث وجلاله وقدره قال أبو سعيد رضى الله عنه: "كان أبو إدريس إذ حدث بهذا الحديث: جثا على ركبته" رواه مسلم.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

نعم: ما من شك فى أن المجتمع البشرى إذا تجرد من الظلم والأذى، فإن السعادة والطمأنينة والأمن سترفرف عليه بأجنحتها وتنشر فوقه ألويتها، ولذا يقول رسول المحبة صلوات الله وسلامه عليه: "تبسمك فى وجه أخيك صدقه،وأمرك بالمعروف صدقة وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة،

وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقه، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقه".

هذه خطوط لمجتمع الإسلام النظيف فى عقيدته وفى معاملته وعبادته وفى سلوكه: نظيف اللسان، نظيف اليدين، نظيف العينين، نظيف السمع، نظيف القلب.

لقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم فى كلامه شناعة الظلم وقسوة ألمه على المظلوم، فقال فى حديث له رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنه: "اتقوا الظلم، فإن الظل ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلك، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم" رواه مسلم.

قد سئل النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له: أى الإسلام خير؟ فقال: "تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف". وسئل صلوات الله وسلامه عليه أى المسلمين خير؟ فقال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده"، (وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) (إبراهيم: ٤٢). وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم مبينا هذا المعنى فقال: "إن الله ليملى للظالم، فإذا أخذ لم يفلته، ثم قرأ: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة، إن أخذه ألم شديد" متفق عليه. ويحذر الرسول صلي الله عليه وسلم من دعوة المظلوم فيقول في حديث له: ".. واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" متفق عليه.

* * *

أخي: إذا كان الحياء خلق الإسلام، فهل عرفت ما حقيقة الحياء؟ إن الرسول صلوات ربي وسلامه عليه يلقى بيانا شافياً كافيا في حديث جامع يستفاد منه أن الحياء هو البعد عن الظلم والحرام، حيث يقول: "من استحي من الله حق الحياء: فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليكثر من ذكر المقابر والبلى، ومن أراد الآخرة: ترك زينة الدنيا".

الرشوة المقنعة

ولكى لا يكون للناس حجة على الله رسوله، فإن الإسلام يبن نماذج متنوعة تعتبر ظلما محرماً.. فهذا رجل يسمى "ابن اللتبية" يستعمله الرسول صلى اللهم عليه وسلم علي الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي إلي، فقام رسول الله صلي الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد: فإني أستعمل الرجل منكم علي العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول هذا لكم، وهذا أهديت إلي، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة، فلا أعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتي رؤي بياض إبطيه، فقال: اللهم هل بلغت" متفق عليه.

وهكذا يغلق الإسلام باب الرشوة التي تقدم للموظف باسم الهدية أو بأي اسم آخر ولكنها في الحقيقة: الرشوة بأدق معانيها.. إذا أنه يتقاضي علي عمله هذا مرتبا و أجرًا معلومًا.

رد المظالم إلي أهلها: كذلك يحذر الرسول صلي الله عليه وسلم بعد ذلك من إضاعة المظالم، فيامر بالمبادرة بأدائها قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، يقول: "من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" رواه الخارى.

وهذا نموذج آخر من نماذج الظلم: عن عبدالله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنها قال: كان على نفل النبى صلى الله عليه وسلم رجل يقال له ((كركرة)) فمات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "هو فى النار، فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءة قد غلها" رواه البخاري (ومعنى غلها: أى خان المسلمين فأخذها علي سبيل الغلول، وهو خيانة مال الغنيمة). أخا الإسلام: لا تحقرن من الظلم شيئا، ولو كان قليلا، ما دام أخذه علي غير وجه حق، فقدد روي أبو أمامة إياس بن ثعلبة الحارثى رضى الله عنه أن رسول الله صلي الله علية وسلم قال: "من اقتطع من حق أمرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ فقال: وإن كان قضيبا من أراك" رواه مسلم.

وعن عدى بن عميرة رضى الله عنه، قال سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: "من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطا فما فوقه: كان غلولا يأتي يوم القيامة، فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأنى أنظر إليه، فقال رسول الله: قبل عني عملك؟ قال: وما لك؟ قال سمعتك تقول كذا وكذا، قال وأنا أقوله الآن: من استعملناه علي عمل فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتى منه أخذ، وما نهى عنه انتهى" رواه مسلم.

من المفلس؟

وبعد هذا الطواف الشامل والسبح الطويل حول تحريم الإسلام للظلم والتحذير الشديد من الوقوع فيه، نأتى إلى هذا الحديث الذى سأل الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أصحابه عن المفلس: من هو؟ وفى هذا الحديث من جليل المعانى وعظيم الأثر، ما يجعل كل مسلم يقف عنده ويعرض نفسه عليه، ينظر فيه نظرة التأمل ويعمل فيه الفكر.. فالحديث معيار دقيق، وميزان صادق للإفلاس من العمل الصالح، وهو يصور موقف المفلسين، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتي الله بقلب سليم.

ولنستمع إلى السؤال نفسه من سيد الخلق، والإجابة عليه من الصحابة، وبيان الجواب الحقيقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم:

عن أبى هريرة رضى الله عليه وسلم قال: "أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه: أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار" رواه مسلم.

أمعن النظر ودقق في الحديث وارجع البصر كرتين لتتبين حقيقة الإفلاس من العمل الصالح، وكيف أنه مبنى على أمور كلها مظالم للعباد.. فالقذف، والشتم، وسفك الدماء، والضرب، وأكل المال.. كل هذه مفاسد اجتماعية خطيرة مرتكبها يحشر فى زمرة المفلسين:

وما أدراك ما الإفلاس؟ لو كان إفلاسا من المال: لهان الخطب، ولكنه إفلاس من الزاد الطيب، والعمل الصالح، الرصيد الذى ينجى صاحبه من خزى النار وعذابها.. بهذه المفاسد تأخذ من حسنات صاحبها فتجعل على حسنات المظلومين، حتى إذا ما فنيت حسناته ونفد زاده: أخذ سيئات من ظلمهم فجعلت على سيئاته، فيحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله، وينوء بأوزاره وأوزار الذين ظلمهم.. والنتيجة المنطقية أنه يقذف به فى النار !

من أجل ذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يناشد النفس البشرية الضمير اليقظ، والإحساس المرهف، وينادى على القلب الذى يحس عظمة الله تعالى ويخشى سلطانه، فيقول للخصوم الذين يطالب كل منهم بحقه، يقول لهم هذا الدرس الواعى البصير: "إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار" متفق عليه. ألحن أى أعلم.

حرمة الدماء فى الإسلام

إن من أعظم الأشياء حرمة فى شريعة الله تعالى: حرمة الدماء، ولذلك جاء الوعيد والتهديد شديد لمن اعتدى على دماء الناس، فقد قال سبحانه: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً) (النساء:٩٣)، وجاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لن يزال المؤمن فى فسحة من دينه: ما لم يصب دما حراما"!

وبلغ من تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من الاعتداء على الدماء أنه قال: "الآدمى بنيان الرب، ملعون من هدمه"، وقال: "من أعان على قتل مسلم لو بشطر كلمة: جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه: آيس من رحمة الله" وقد أمر الله تعالى بالتبين عندما يريد المسلمون أن يضربوا فى الأرض، حتى لا يعتدوا على أحد ظلما وعدوانا، فقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ) (النساء: ٩٤).

حرمة المال فى الإسلام

وإذا كانت هذه حرمة الدماء، فإن حرمة المال لا تقل عنها خطرا. يقول سبحانه وتعالى: (وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة:١٨٨).

ويؤكد هذا المعنى فى موضوع آخر فيقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ) (النساء: ٢٩). ويسمى المال الحرام: خبيثا، فيقول. (قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:١٠٠).

التحذر من أكل مال اليتيم: ويخص بالذكر مال اليتامى، نظرا لما له من حساسية خاصة فيقول جل شأنه: (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً) (النساء:٢). ويرشد الوصى على مال اليتيم يتصرف إذا قضى لليتيم حاجة فى سبيل إنماء ماله فيقول سبحانه: (وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) (النساء: ٥) ثم يقول: (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) (النساء: ٦). ثم يبين العاقبة الوخيمة المآل السيئ لأكلة مال اليتيم فيقول جل شأنه: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) (النساء:١٠).

وإذا كان الحرام خبيثا، فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم عاقبة أصحاب هذا الخبيث فقال: "إن رجالا يتخوضون فى مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة" رواه البخارى.

وفى الجانب الآخر يأمر الله المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين فيقول:

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) (المؤمنون:٥١) ويقول أيضا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (البقرة:١٦٨) ويقول جل ذكره: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (البقرة:١٧٢). ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم "يا سعد: أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة" ثم يقول: "ومن نبت من جسمه من حرام فالنار أولى به".

شريعة العدل والرحمة

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران:٨٥)

ما أشد حاجة البشرية إلى الإسلام الذى يناشد القلوب جمعاء، وينادى على النفوس بحزم وصرامة أن تلتزم جانب الله فتعدل فى جميع أمورها، وفى هذا يقول سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) (النساء:١٣٥)، وتبلغ درجة العدل فى الإسلام أنه ينهى عن ظلم الأعداء، وأن دعوة المظلوم لها خطرها،ولو كانت من كافر.

جاء فى الحديث الشريف: "اتق دعوة الظلوم ولو كافرا فعليه كفره".

وقرر القرآن الكرم العدالة، ولو كان الخصم على غير شريعة الله.. قال سبحانه: فى سورة (المائدة): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة:٨).

ولمكانة العدل فى الإسلام قال الإمام على كرم الله وجهه: بنى الإسلام على أربع دعائم: اليقين، والصبر، والعدل والجهاد.

وما أجل أثر هذه الآية الكرية الجامعة: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل:٩٠).. وقد خاطب الله كل من ولى أمرا من المسلمين

بهذا الخطاب الصريح فى دلالته.. فقال سبحانه: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (النساء: ٥٨)، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تكلم عن المسئولية: وزعها توزيعا عادلا.

حق الرعية على الراعى فى الإسلام

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته: فالإمام راع، ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته".

ومن أكبر الكبائر أن يغش الأمير رعيته ويكتمهم نصحه.. عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من عبد يسترعيه الله رعيه يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته: إلا حرم الله عليه الجنة" متفق عليه. وفى رواية: "فلم يحطها بنصحه: لم يجد رائحة الجنة)"، وجاء فى صحيح مسلم ما يؤكد هذا المعنى، فقد قال صلى الله عليه وسلم "ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجتهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة".

لقد بلغ من عناية الإسلام بالرعية والعدل معها فى جميع شئونها أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى الله تعالى بهذا الدعاء: عن عائشة رضى الله عنها قالت: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى بيتى هذا: اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به" رواه مسلم.

صدقت يا سيدى يا رسول الله ! فأنت النعمة المسداة، والرحمة المهداة: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧)، وصدق الله تعالى إذ

يقول فى شأنك: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة:١٢٨).

عن أبى مريم الأزدى رضى الله عنه أنه قال لمعاوية رضى الله عنه "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من ولاه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم: احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة" فجعل معاية رجلا على حوائج الناس، رواه أبو داود والترمذى.

أى عدالة هذه، وأى رحمة تلك؟ إنه عدالة الإسلام رحمة بنى الإسلام الذى وصفه ربه بقوله: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) (آل عمران: ١٥٩).

لقد كنت يا سيدى يا رسول الله مضرب الأمثال فى العدل حتى لقد اشتد غضبك عندما جاءك الحب ابن الحب ((أسامة بن زيد)) يشفع فى امرأة شريفة فى قومها، وقد سرقت، قلت له يومها وقد عرف الغضب فى وجهك، كنت لا تغضب إلا لله: "أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة؟ والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها". وحاشا لله أن تسرق فاطمة.

أليست ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم: رضاها من رضاك، وغضبها من غضبك؟ ألست فاطمة التى كانت تقوم على شئون بيتها: تأثرت يداها من الرحى، تأثر نحرها من حمل قربة الماء، واغربت ثيابها من كثرة ما كنست بيتها،وجاءك سبى فطلبت منك من يخدمها، فقلت لها

بمنطقك السديد وعدالتك الباهرة: (لا أعطيك و أدع أهل الصفة) تعنى فقراء المسلمين الذين عرفوا بمكانهم فى مسجدك الشريف، وقالت لها يا فاطمة: "اتقى الله وأدى فريضة ربك، واعملي بعمل أهلك، فإذا أويت إلي فراشك فقولى: سبحان الله ثلاثا وثلاثين، والحمد لله: كذلك، والله أكبر: كذلك، ثم قولي لا إله إلا الله، فهذه المائة خير لك"؟

فماذا قالت؟ قالت بلسان الرضا ومنطق القناعة: رضيت بالله ورسوله!.

ألست أنت الذي جعلت الإمام العادل في سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله؟ عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "سبعة يظلهم الله فى يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله: اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه"! متفق عليه.

أى شريعة، وأى نظام بلغ من سمو الفكرة ونظافة المعاملة بلغه الإسلام؟

أعلمت ما مكانة المقسطين عند الله يوم القيامة؟ اقرأ في ذلك ما رواه الإمام مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المقسطين عند الله علي منابر من نور الذين يعدلون فى حكمهم وأهلهم وما ولوا" رواه مسلم.

ويبن الرسول خيار الأئمة من شرارهم بيانا يقوم على ميزان عادل ومقياس دقيق فيقول: عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: "خيار أئمتكم: الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم يصلون عليكم، وشرار أئمتكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم".

ويبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم المقسطين والرحماء الأعفاء بهذه البشارة الكريمة، فيقول: "أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق، رجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال" رواه مسلم.

الإسلام شريعة الأخلاق

ما أشد حاجة البشرية إلى الإسلام، سيما فى عصر اجتاحت فيه التيارات المختلفة باسم العلم كل القيم، فاهتزت المعايير الخلقية، وانتكست المثل العليا، فأصبح الاتصال الجنسى يسمى حبا، والفوضى والهمجية تسمى حرية، والقيم والأخلاق والمثل تسمى بالجمود والرجعية.. حتى قال بعض المفكرين المادين: إن الأخلاق قيد لا معنى له !.

سبحانك: هذا بهتان عظيم، وإفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون: فقد جاءوا ظلما وزورا.. (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً) (الكهف: ٥).

إن من الحقائق الثابتة أن الحياة بدون قيم: جحيم مستعر، ووباء لا يعرف الرحمة.. يحصد الأخضر واليابس، ويحيل زهرة الحياة إلى هشيم تذروه الرياح. من هنا جاء الإسلام ليعلن فى سمع الدنيا على لسان رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأ تمم مكارم الأخلاق" "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم"، "ليس شىء أثقل على الميزان من حسن الخلق"، "حسن الخلق يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، وسوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل".

جاء الإسلام ليقيم فى النفس البشرية هذه الممالك: اليقين، الرحمة، الصبر، الشكر، الرجاء، الخوف من الله، الزهد، التوكل، الرضا، المحبة.

وهل هناك فى الوجود مجتمع أعظم من أمة تقوم على تلك المبادىء الثابتة، والأركان الوطيدة؟ !

اسمع إلى قول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا"، ويزداد حرص الرسول صلوات الله وسلامه عليه على سلامة المجتمع من أى أذى مهما كان ضيلا، فتراه يقول: "من مر فى شىء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحدا من المسلمين منها بشىء"!

وقف مليا، خاشع البصر، متأمل الفكر، فى هذه اللوحة النبوية البديعة التى رسمها سيد البشرية فى قوله: "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم: مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"!.

***

لو أوتيت سحر البيان الذى تخر له العمالقة، ومنحت ريشة من الجنة، وأعطيت قدرة التعبير على التصوير ما استطعت أن أخط سطرا أمام هذا البيان المعجز، والروعة الرفيعة، من هذا الحديث الشريف الذى صور المجتمع الكامل المسلم المتراحم المتآلف.. إنه كالجسم فى خلاياه التى تكون الأنسجة، التى تكون الأعضاء التى تكون الأجهزة، يعمل متعاونا متكافلا، لا شقاق ولا قطيعة، لا غيبة، لا نميمة، لا اعتداء ولا فجور، لا سخرية ولا تجسس، لا إثم ولا فسوق.. طهارة فى اللسان، ونظافة فى القلب، وبقاء فى العين، وصفاء فى العقل، وحصانة فى السمع، وأمانة فى اليد، وعفة فى الفرج، وحفظ للرأس وما وعى، وصيانة للبطن وما حوى.

محمد نبى الرحمة

أسمعت إلى هذه الرحمة النبوية بالأبناء، وكيف ذهل أحد الأعراب لرؤية هذا المنظر الرائع؟

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: "قبل النبى الحسن بن على رضى الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال "من لا يرحم لا يرحم".

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: "أتقبلون صبيانكم؟ فقال نعم، فقالوا: لكنا والله لا نقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة"؟!.

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه ولم: "من لا يرحم الناس لا يرحمه الله".

وتشمل الرحمة فى الإسلام جميع نواحى الحياة، لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا رفرفت عليها بأجنحتها، وغمرتها بأنوارها.

اسمع إلى الرحمة فى العبادة، وعلى رأسها الصلاة: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقم الكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء". (وفى رواية: وذا الحاجة). وعن عائشة رضى الله عنها

قالت: "إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به، خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم".

وانظر إلى جانب الرحمة فى الصيام: كان صلى الله عليه وسلم له صوم يسمى ((صوم الوصال))، يمكث عدة أيام صائما دون أن يأكل أو يشرب وقت الإفطار أو السحور، ولكنه مع ذلك – رحمة بأصحابه –نهاهم أن يقلدوه فى الصيام، خشية أن يفرض عليهم، فتقع المشقة لهم. قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: "نهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل. قال إنى لست كهيئتكم، إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى: (أى يجعل فى قوة من أكل وشرب).

سيدى أبا القاسم يا رسول الله:

وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء يا من له الأخلاق ما تهوى العلا منها، وما يتعشق الكبراء زانتك فى الخلق العظيم شمائل يغرى بهن ويولع الكرماء !

تأخذنى الدهشة ويستولى على العجب، وكأنى أقف فى وهدة سحيقة، وأرنو بناظرى إلى قمة شماء ما تنخلع الرقاب عند ذراها.. إن تلك القمة الشماء هى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلبه المفعم بالرحمة ! تأمل جليل رحمته وجميل عطفه فى هذا الحديث الذى رواه أبو قتادة الحارث بن ربعى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه سلم:

"إنى لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبى، فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه" رواه البخارى.

وعن جندب بن عبدالله رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشىء، فإن من يطلبه من ذمته بشىء يدركه ثم يكبه على وجهه فى نار جهنم" رواه مسلم.

يا معشر المسلمين: تعالوا لنلقى نظرة على جانب الرحمة بالمجتمع، وكيف رسم الشرع الكريم خطوطها العريضة، ومناهجها القويمة..

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة".

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم، لا يخونه، ولا يكذبه، ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام: عرضه، وماله، ودمه، التقى هاهنا، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم" رواه الترمذى.

وتأمل كيف تقوم الرحمة بتنظيم المجتمع وتطهير صفوفه من الأمراض والأوبئة، حيث يقوم صلوات الله وسلامه عليه: "ولا تحسدوا، ولا تناجشوا[1] ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض،

---

(١) التناجش: معناه صورة من صور المزايدة فى البيع لإيقاع الغير فى الضرر، وهو أن يزيد فى ثمن سلعة ينادى عليه فى السوق ونحوه ولا رغبه له فى شرائها، بل يقصد أن يضر غيره، والتدابر: أن يعرض عن الإنسان ويهجره ويجعله كالشىء وراء الظهر والدبر.

وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يحقره، ولا يخذله، التقوى هاهنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه" رواه مسلم.

شرعة الحق فى الإسلام

هذا معيار الإيمان وميزان التصديق، يبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

هذه صورة أخرى من صور النصيحة والنجدة، يوضحها سيد المرسلين فى قوله: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل: يا رسول الله: أنصره إذا كان مظلوما، أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره" رواه البخارى.

وينتقل الإسلام بعد ذلك فيفيض فى بيان حقوق المسلمين بعضهم على بعض.. يقول صلى الله عليه وسلم: "حق المسلم على المسلم: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس" وفى رواية لمسلم: "حق المسلم على المسلم ست إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده. وإذا مات فاتبعه".

الرسول رحمة مهداة

وبعد: فهذا غيض من فيض، وجزء من كل، وقطرة من بحر، وسطر من قمطر، فيما قاله رب العالمين فى رسول الأمين (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء:١٠٧). وصدق الله تبارك وتعالى إذ يقول فى شأنه(بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة: ١٢٨). وكفى الإسلام رحمة أنه فتح أبواب الجنة بروضها وريحانها لرجل سقى كلبا كان قد اشتد به العطش حتى أخذ يلهب الثرى، فشكر الله له صنيعه، فغفر له ! ويكفى الإسلام حزما ونهيا عن القسوة أنه فتح أبواب جهنم لامرأة عذبت هرة حبستها، لاهى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت جوعا، فأدخلها الله النار بسبب ذلك!

سيدى أبا القاسم يا رسول الله:

ياسيد الرسل الكرام ومن به ... قد قام للدين الحنيف بناء
الحق نور، أنت مظهر فجره، ... والشرك ليل، أنت فيه ضياء
العدل أنت وضعت ثابت ركنه ... فمضى على سنن لك الخلفاء
والسلم دأبك، ما ركبت كريهة ... حتى بدا للمشركين عداء
والمسلمون جميعهم جسد، إذ ... عضو شكا، سهرت له الأعضاء
والدين والدنيا لنا جمعتها ... شرعه قدسية غراء
والظلم قد سدت عليه طريقه ... هذى العدالة، فالنفوس سواء

الإسلام محرر البشرية

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (آل عمران:١٦٤).

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم، وغمرها بعدله.. فما أشد حاجة البشرية إليه، والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد، وركز فيه سبل الإصلاح! والإسلام هو الذى حرر العقل من الجمود والتقليد، وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير! والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستبعاد، وجعل منهم سادة أقوياء:

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهر أن يثيروا شبهات حول الإسلام، فجعلوا من مسألة (الرق) ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه، بعد ما أعجزتهم الحيل، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن أو طعنة لغامز، ولو تدبر هؤلاء مسألة (الرق) لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها، بل هى مفخرة من مفاخر الإسلام:

يقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه "ما قال عن الإسلام":

مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فما عدا هذه الحملات، وهم

الماديون المنكرون للأديان، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك.

ويتفق الماديون والمبشرون، لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء: أولاهما: نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الإنسان، ويجهلون دينهم فيصدقون ما يقال فيهم عنه فى مسألة الرق، ولا يعلمون به أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقام.

أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون: فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية، خوفا من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام، قياسا على نجاح الإسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة، مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك، وعظيم الجهود التى يبذلها المبشرون تعاونهم عليها حكومات الدول الغربية.

فالماديون والمبشرون يجتهدون – غاية الجهد– لنشر دعوتهم إغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب، ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ويشتركون معهم فى الموطن ومصالح المعيشة، فيتوسلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة (النخاسة)، وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا (النخاسة) قديما وحديثا وهم – أى دعاة المادة والتبشير – أول من يعلم من تاريخ

(النخاسة) أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية، تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين.

أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسمومة، وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة، فهى واضحة، قريبة المنال، كفيلة بإقناع من يستمع إليها، مسلما كان أو غير مسلم – ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير.

إن الأديان جميعا – قبل الإسلام – أباحت الرق، وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخريهم فى خدمة ذويهم، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه، ويضلون عن سبيله.

وجاء الإسلام، فشرع العتق، ولم يشرع الرق: وقد ندب المسلمين إلى فك الإسار عن الأسرى، فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة.

لقد أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الإسار بغير فداء، وفرض تحرير الرقاب على من قتل خطأ ومن يحنث فى يمينه، ومن يظاهر من زوجه، ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها، ومنها فدية الرقاب.. ولم يبق الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشأ الله.

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى، أو ببذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة. وقد تأخرت

دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الإسلام وأوجبه على الدولة الإسلامية، وهى تتولى صرف الزكاة (فى الرقاب).

فإذا كانت الدول غير الإسلامية لم تعرف لها نظاما تتبعه لإطلاق أسراها من الرق، فهى المسئولة عن هذا التقصير، وليس على الإسلام أو الدولة الإسلامية ملامة فيه.

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الإسلامية غيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التى تجاورها. ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية، لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون.

ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة: ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين؟

ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال؟ هل تعفيهم من العمل؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها؟ هل تصنع بهم صنيعا أكرم من صنع الإسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق، أو يوجبوه فى مقام التكفير والإحسان؟

إن صنيع الإسلام الذى أوجبه - قبل أربعة عشر قرنا - هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها: فأما أن يكون لها صنيع أكرم منه: فلا ندرى كيف يكون، ولا كيف يأتي لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه.

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الإسلامى فى تشريعات الرق، بغير استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الإنسانية كما تسميها.

فالإسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء، بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء ثورة سياسية، أو منازعة اقتصادية، أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح.

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء: جاءت على النزاع بين أصحاب الصناعات، حيث تدار بأيدي الأرقاء ولا تنفق عليها أجور، فإن أصحاب الأموال والصناع معا حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية.

ثم جاءت الخطوة الثانية: يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجندهم أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت

وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة: يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون.

وجاءت بعدها آخر الخطى: يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها وتحررت شعوبها من سادتها، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك.

فلما وصلت الحضارة الأوربية إلى هذا المدى – بعد طول التعثر والمجال – لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف، ولكنها كانت ولا تزال – قضية مساومة واضطرار، وحيلة من حيل السياسة والإدارة وخطة من خطط التأجير والاستغلال.

والفارق الأكبر فى مسألة الرق – من جانب الواقع التاريخى – هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الإسلامية، وعددهم فى البلاد الغربية – حيث يعشيون اليوم بين الأمريكتين – فإن الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الإسلامية – بعد ثلاثة عشر قرنا – على ثلاثة ملايين، أو نحو هذا العدد القليل، بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليونا ولم يمض على قيام الحكم (الأبيض) هناك أكثر من ثلاثة قرون.

وأبعد هذا الفرق فى العدد: فارق المعاملة التى لقيها الأرقاء فى البلاد الإسلامية، والمعاملة التى لقيها إخوانهم فى الأمريكتين، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال، وبين تحريم المساكنة والمصاهرة، واستباحة الدم، انتقاما من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته (البيض).

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلا:

إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التى يحارب بها الإسلام.. فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام بمسمع ومشهد من المسلمين، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين؟

* * *

وهكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المغرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير. وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام، إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة. ونحن نسأل هؤلاء وأولئك: هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق ! إن الوقائع تثبت، والتاريخ يؤكد، والحقائق تقرر أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه.. كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادى الذى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب، أو كالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض.

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه ((في الدين والأخلاق والقومية)) ما نصه:

محمد محرر البشرية: عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق، كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار. وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية؟ وهل كانت الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشيء أو لأحد غير الله.

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية، فكيف يكون من صنع الإسلام الذي أعلن كرامة الإنسان؟ والاستعباد تبديل للفطرة، فكيف يكون من أنظمة الإسلام، الذى هو دين الفطرة؟

وإن تعجب لشيء فاعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق، أبيضه وأسوده،أنهم هم الذين أفشوه، ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها: من طريق الخداع والتمويه، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب! وأنهم جازوا فيه الحدود، ولم يكفهم استرقاق الأفراد، فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب.

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام:

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب، فى اليونان، وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان، فتحت باب الرق على مصراعيه، فكان جزاء

القاتل أن يكون عبدا لولى الدم، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكًا لدائنه، كان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال. ومصداقه فى قصة يوسف- عليه السلام -:

(قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (يوسف:٧٤-٧٥)، وكان السلطان المطلق لمخول لرب الأسرة على أعضاءها يبيح له أن يقتل منهم من يشاء، وأن يبيع من شاء، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه بد الدهر إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته.

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وقدوة المصلحين، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها، ولكنها ثورة حكيمة منظمة:كثورته على الخمر، وثورته على الربا، وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة، والرذائل المورثة مستحكمة.

لقد كانت سوق الرق تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل، موصدة المخارج. كان الرق و باء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار، وكان حريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة، والدواء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة.

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة؟! إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة: نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى خارجها،

ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لتعلق منها كل من استطاع النجاة، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم بردا وسلاما ريثما يتيسر لهم الخروج منها.. وسأفسر لك ذلك:ويمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحا واقعيا فى ظلال الإسلام فيقول:

فأما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة: فذلك هو الدوا الواقى الذى أوقف من سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين.. ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه، بع أن أن كانوا مهتدين به من كل جانب.، فاليوم لا الخطف، ولا البيع والشراء، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات، ولا تحكم رب الأسرة، و العجز عن وفاء الدين، ولا الرقة، ولا القتل.. لم يعد شىء من ذلك كله منذ ظهر الإسلام – يصلح مبررا لاستعباد الإنسان، ولم يكتف الإسلا بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق، بل إنه حال بينهم وبين أ يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد، وذلك بمنع التزوج بين الأحرار والإم وإلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت. وهذا من أوضح الأدلة على أ الإسلام – قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل – أراد به التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء، غير أن ها هنا شبه تجول فى الخواطر، ونرى من الأمانة العلمية ان نعرضها وأن نعالا كشفها وجلاء الحق فيها: أما الشبهة فهى أن الإسلام – وإن كان قد سد د الأبواب التى أشرنا إليها، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد قد ترك – إلى جانب هذه الأبواب – منفذا صغيرا لم يغلقه، ذلك: هو حـ

لحرب الإسلامية المشروعة وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام.

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين – فى هذا الحال – أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث: إما بإطلاق سراحهم، وإما باسترقاقهم، ولو كانوا أحرارا، وإما بقتلهم؟

الجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث، فالواقع منها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية.

فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم، لم نجد فيه أثر لقتل الأسير ولا استرقاقه، وإنما له مصيرا واحد كريما، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل: (فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء) (محمد: ٤)، كما أن سنة الرسول الرحيم صلى الله عله وسلم لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير، إلا فى حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفا بخطره وشدة نكايته بالمسلمين، فهو ليس قاعدة عامة، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين، وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم: عقوبة (مجرمى الحرب). بقى الاسترقاق، واضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة. ألا ترى كيف جعل كفارة لقتل الخطأ: تحرير رقبة؟

إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة.. فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد دراجا له فى زمرة الأحياء، بعد أن كان محسوبا فى عداد الأموات وهكذا تبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى، ولا فى نصوصه، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على

هؤلاء الأسرى بالحرية، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير: فإنما يكون ذلك منه نزولا على حكم الضرورة، اتقاء لخطره، وكسرا لشوكته وشوكة قومه.

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى، وإنما يتخذه إجراء مؤقتا، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه ويلح فى المطالبة بتحقيقه. ألا وهو: التحرير الكامل.

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية.

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب، كان هو مفتاح القلوب، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب، ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل، قال تعالى:

(فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ) (البلد:١١-١٣).

قال عليه الصلاة السلام:

"من أعتق رقبة: أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار".

ومفتاح ثان: هو مفتاح خزائن الدولة.. إذ جعل فيها سهما مكررا فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستبعدين.

مفتاح ثالث: مفتاح (قانون الكفارات)، وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا: كالحنث فى اليمين، والفطر فى رمضان، والقتل الخطأ، وغير ذلك.

من أهم هذه الأنواع: (كفارة الإساءة) التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه.. وفى ذلك يقول رسول الرحمة صلوات الله وسلامه عليه: "من لطم مملوكه أو ضربه: فكفارته أن يعتقه".

هذا جزاء الضربة أو اللطمة. أما الجرح، أو تشويه الجسم: فإن حكمه – عند أكثر الأئمة – أن يصبر العبد حرا بمجرد إصابته، فينزع من ملك السيد قهرا عنه. وكذلك إذا كلفه سيده أعمالا فوق طاقته تكرر منه ذلك.

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامى الرحيم.

لقد رأينا أبوابا فتحت أمام الحرية، ورأينا أبوابا أغلقت دون الرق بين هذين الطرفين ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد إنهم هنالك ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية الطلق: فهل صنع الإسلام شيئا لهذه الفئة فى فترة الانتظار؟

نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى الفترة يحيون حياة الإنسان، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات.. ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم. هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين: "إنهم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم

ما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون، فإن كلفتموهم: فأعينوهم".

صدقت يانبى الرحمة – صلوات ربى وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق:

١- منع لإنشائه وابتدائه.

٢- عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه.

٣- عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته.

أما بعد، فهل من منصف يقولها معى:

أما والله لعبد فى ظل الإسلام: خير من كثير من الأحرار فى كل نظام.

وهكذا ينتهى المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف، وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات.. وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق وقفة الحزم والعزم، كما هو كل شئونه:

سيدى أبا القاسم يارسول الله:

داويت متئدا، وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء: الداء أبعد كل هذه الوصايا بالبشرية، وإحاطتها بالكرامة، يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء.

إن الإسلام يعد الناس جميعا متساوين فى الإنسانية ن لإنهم جمعيه صنعة إله واحد،أبناء لأب واحد.. (إن أباكم واحد، وإن ربكم واحد). (يَ

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: ١٣).

وهذه المساواة العامة الإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب، وهى فوارق الانحراف البشرى، والظلام الإنسانى.. فوارق الجاهلية الضالة، والهوى المتسلط، والتعالى الكاذب، والتمييز المصطنع.. وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق – فى قليل أو كثير – من طبيعة الخلق والولادة، والمأكل والمشرب، والحياة، أسباب المعرفة والإدراك.

المساواة فى الإسلام

لست أدرى: أين هى التفرقة فى واقع الخلق حتى تقع بين الخلق؟ التفرقة فى حقيقتها انتكاس بالإنسانية، وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية التى لا يمكن أبدا أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه.

والطبيعة تأبى على الإنسان أن يكون غير كونه إنسانا، فهو خاضع للقوانين المسيطرة، والسنن العامة، والمصير المشترك، كما تأبى سنن الخالق تبارك وتعالى أن يمتد بقاؤه فيحقق ما يصبو إليه من استبعاد الناس والتعالى عليهم.

فكم من حالم أيقظته مخالب الموت !

وكم من مختال على العباد داسته أقدامهم فى التراب!

وكل ما فوق التراب تراب!

فمن أين تأتى التفرقة، والمبدأ معروف، والمصير مشترك؟!

ولي فـــى فـــناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راقي
شـــخوص وأشـــكال تمر وتنقضى فتفـــنى جمـــيعا والمهيمن باقي

الإسلام العظيم يأبى التفرقة ويحاربها، والنبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه يعلن فى خطبته الجامعة: "أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أسود ن إلا بالتقوى، كلكم لآدم، وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم".

ويقول القرى الكريم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: ١٣).

أخا الإسلام:

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
إذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

* * *

إن المساواة فى الإسلام تدعوا إليها الفطرة العامة، ويقضى بها المصير المشترك، ويتطلبها عدل السلوك وسلام الإنسانية.. قامت فى الإسلام من أول أمره حين دعا الناس جميعا إلى عبادة الرب الواحد، رب العالمين، وهذه المساواة فى الإنسانية: تستلزم المساواة فى الحقوق.. فالناس جميعا أمام قانون الله سواء، لا فرق عظيم و حقير، وشريف ووضيع.

فالحق أساس هذا الدين، والعدل سياجه، و الناس – مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم – أمام عدله و حقه: سواء!

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدنيا
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعز به ... وكن عفيفا، وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك ... كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

أجل ! صدقت يارب العزة، يامن قلت: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (الإسراء:٧٠).

العدالة فى الإسلام

والعدل فى الإسلام عدل مطلق، يستوى فيه الأصدقاء، والأعداء، وأنت تسمع من قوانين هذا الدين قوله جل شأنه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة:٨).

وأنت ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب أشد الغضب، ويحمر وجهه كأنه الشفق عندما تودعه الشمس الغاربة.. إنها غضبة مضربة.

وإذا غضبت فإنما هى غاضبة للحق، لا ضغن ولا شحناء

يغضب عندما يرى أسامة بن زيد، الحب ابن الحب، يستشفع لامرأة مخزومية شريفة الأصل - كانت قد سرقت - ويقول له غاضبا معنفا: "أتشفع فى حد من حدد الله". ثم يخطب فى الناس قائلا: "إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت: لقطعت يدها".

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، عملاق الإسلام، وفاروق هذه الأمة - يعلن فى سمع الزمن هذا المبدأ الخالد، بعد ما تولى خلافة المسلمين بعد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيقول:

"أيها الناس: الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه".

ويقول فى رسالة له لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى أمر القضاء:

"آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك".

وها هو ذا (ضرار الصدائى) يصف أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه، وما اتصف به من العدالة والإنصاف للرعية فيقول: "كان فيد كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا: لانكاد نكلمه لهيبته، ولا نبتدئه لعظمته.. يعظم أهل الدين، ويحب المساكين.. لا يطمع القوى فى باطلة، ولا ييأس الضعيف من عدله.. كان – والله – غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه".

وهل ينسى التاريخ هذا الموقف الإسلامى المشرف الذى وقفه الفاروق من (عمرو بن العاص) حين علم أن ابنه ضرب أحد أبناء الرعية، وقد قال له كلمته الخالدة: يا عمرو: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟

أبعد هذا التكريم للبشرية يجرؤ أفاك أثيم على أن يرفع صوته بهذه الفرية التى تقول إن الرق فى الإسلام يعتبر تهمة توجه ضده، وهو لم يقرأ عن شيئا، بل إنه يهرف بما لا يعرف.

وصدق الله تعالى حث يقول: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ) (الحج:٨-٩). هذا الإسلام، هو

الذى كانت عدالته مضرب الأمثال فى معاملة البشر، مهما اختلفت أجناسهم ومعتقداتهم.

* * *

ومن جليل ما يذكر فى هذا المجال، ما جرى بين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب، وقد تحاكم الأول أمام عمر، وكان الخصم يهوديا، وكان عمر – كعادته – ينادى عليا قائلا: يا أبا الحسن، فلما ناداه فى هذه المرة وهو يتحاكم أمامه كعادته، ظهر الغضب على وجه على فظن عمر أن عليا يتبرم من وقفه مع اليهودى على قدم المساواة، وعلى هو من تعلم: حسبا، ونسبا، وإيمانا، وصدقا.. قال عمر لعلى: اكرهت أن يكون خصمك يهوديا؟ فقال على رضى الله عنه: إنما غضبت لأنك لم تسو بينى وبين خصمى اليهودى، إذ ناديته باسمه، وناديتنى بكنتيى !

أرأيت أن المساواة فى الحقوق ليست بين المسلمين وحدهم، بل بين المسلمين وغير المسلمين، وأن عليا يقف فى ساحة القضاء مع خصم يهودى يأبى عليه دينه أن يترك لفظا تشم منه رائحة التعظيم له فيغضب، ويعد هذا تميزا فى موطن القضاء.. وما كان النداء من عمر إلا نداء قد اعتاده، ولكن لم يستطبه منه فى هذا المواطن: (مواطن القضاء ورد الحقوق) !

* * *

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الإسلام ونزاهته ونظافته وطهارته، وبين ما يدور فى العالم من شرور التفرقة العنصرية فى أعظم الأمم حضارة فى عصرنا هذا؟ !

إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التى وضعها العبد وسولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يحكم بها عباد الله.

شتان. ثم شتان، بين عدل الخالق جل شأنه، وبين ظلم

المخلوق! وحسبك يا أخى أن تعلم أن الإسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدال مع الصديق والعدو.. مع الفقير والغنى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) (النساء:١٣٥).

ثم تأمل بعد ذلك الهدى الإلهى، والعدل الربانى.. تأمل ما تنص عليه شرائع القوم هناك فى العالم الحر: من تفريق بين الأسود والأبيض، وتجعل للبيض حقوقا لاينالها مواطنوهم السود !

وما أمر هذه التفرقة فى أمريكا وجنوب أفريقيا وغيرها من دول العالم، بالأمر الخفى الذى يحتاج إلى بيان !

محمد: الذى جعل من العبيد سادة

هذه حقيقة ثابتة لا يجادل فيها إلا مكابر، ولا يمارى فى مضمونها إلا كل معتد أثيم (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (الجاثـــية:٨).

وأولى بالذين يحاولون أن يجعلوا من مسألة الرق شبهة يثيرون غبارهم على جلال الإسلام وجماله.. أولى بهم أن يرددوا هذه الحقيقة إذا أردوا الإنصاف، وطلبوا وجه الحق.

أولى بهم أن يقولون إن محمدا هو الذى جعل من العبيد سادة، ومن مستضعفين موجهين وقادة.

لقد كان مولده الشريف إيذانا بأنه محرر العبيد.. فقد كانت أول رضعة، أول جرعة لبن نزلت جوفه الشريف من جارية لعمه أبى لهب تسمى ثويبة).. وكان من حسن الطالع وبشير اليمن: أن هذه الجارية عندما وهبت وأخبرت أبا لهب بمولد السيد الجليل محمد صلى الله عليه وسلم فرح لهذا الخبر فرحا عظيما، وكانت مكافأته: عتقها، فصارت بسبب هذه البشرى الكريمة حرة تنشق نسيم الحياة الكريمة.. وكان مولده الشريف إذانا وإعلاما بأن هذا المولود سيجعل من العبيد سادة، ومن المستضعفين مفكرين وقادة.

وها نحن أولاء ننتقل بالحديث عن جارية أخرى.. إنها الجلية (بركة الحبشية) المكنية (بأم أيمن):

وكانت أمة مملوكة للسيدة آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال لها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد موت أمه: أنت أمى بعد أمى.. وقد أسلمت بعد ما دخلت خديجة – رضى الله عنها – فى الإسلام. إذ أن خديجة كانت أول من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم من النساء. وأقامت ((أم أيمن)) بمكة تحتمل أذى المشركين، إلى أن جاءت الهجرة إلى المدينة، فخرجت من مكة ماشية إليها، وليس معها ماء تشربه ولا زاد تأكل منه، وكان عندها قوة عجيبة على احتمال العطش والجوع، حتى أنها كانت تصوم فى اليوم الحار ثم تطوف فى الشمس كى تعطش فلا يصيبها عطش ! أما جهادها فى الإسلام فقد كانت تقوم بسقى الجيش، وتداوى الجرحى فى القتال.

ومما حضرته من الغزوات: غزوة أحد، وخيبر، و كانتا من أهم غزوات النبى صلى الله عليه وسلم.

هذا بالإضافة إلى أنها كانت من أكثر نساء المهاجرين حظا فى الشهداء من رجالهن.. فقد تزوجت بعبيد بن زيد، وأنجبت منه أيمن، الذى مات شهيدا (يوم حنين) وبعد موت (عبيد): تزوجت بزيد بن حارثة، وأنجبت منه أسامة بن زيد، وقد مات (زيد) شهيدا فى (مؤتة)، فصبرت على فقد زوجها (زيد)، وابنها (أيمن) وكان (أسامة) غلاما، فعكفت على رعايته والعناية به، حتى جعلت منه رجلا يقود جيشا: فيه من الأبطال مثل أبى بكر وعمر، وكان آخر جيش أعده النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن (أسامة) قد جاوز العشرين سنة.

ولما مات النبى صلى الله عليه وسلم كانت (أم أيمن) تبكيه كلما ذكرته، ولا ينقطع بكاؤها عليه، وقد قال أبو بكر لعمر، انطلق بنا لنزور أم أيمن، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها، فلما دخلا عليها بكت، فقال لها: ما يبكيك، فما عند الله خير لرسوله؟ فقالت: أبكى لأن وحى السماء قد انقطع ! فهيجتهما على البكاء، فجعلت تبكى ويبكيان معها.

وليس هناك أسمى من النفس التى تبكى انقطاع الوحى، وتحزن بفقد الاتصال بالسماء، فهى ترى إلا السعادة الروحية التى تصل بيننا وبين الملأ الأعلى، وتفيض على أهل الأرض فتسمو بهم إلى مواطنها.

وقد ماتت (أم أيمن) بعد عشرين يوما من خلافة عثمان رضى الله عنه سنة ٦٤٣ م.

* * *

أرأيت إلى هذا الجلال وتلك العظمة فى هذه السيدة التى كانت مملوكة للرسول صلى الله عليه وسلم، فامتدت يداه الكريمتان فأهداها نعمة الحرية، وجعل منها السيدة التى تكلم الخليفة أبا بكر،ووزير عدله عمر كلمة تجعلهما يبكيان يذرفان الدمع على انقطاع الوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذى جعل من العبيد سادة، ومن المتضعفين أساتذة وقادة.

زيد بن حارثة

حب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى شأنه: (أنت مولاى ومنى، وأحب القوم إلى).

نشأته، وشأنه، ومكانته فى الإسلام:

خرجت أمه (سعدى بنت ثعلبة) تزور قومها (بنى معن)، فأغارت خيل لبنى القيس بن جسر، فمروا على أبيات (بنى معن)، فاحتملوا زيدا – وكان يومئذ غلاما يافعا – ولم يعرف أبوه بعد شيئا عنه.

وكان موسم الحج قد أقبل، فحج قوم من (كلب)، وأمام أعينهم دائما صورة هذا الرجل الباكى (حارثة بن شر حبيل)، ومضوا يطوفون بالبيت وهناك رأوا (زيدا) فعرفهم، وعرفوه، وأقبل عليهم، وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به (سوق عكاظ)، فعرضوه للبيع، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم: فلما تزوجها شريف قريش: محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وهبته له، وانطلق (الكلبيون) وأعلموا أباه، فخرج (حارثة) وأخوه (كعب) بفدائه، وقدما مكة فسألا عن النبى صلى الله عليه وسلم فدخلا عليه وقالا: يا ابن عبد الله ! يا ابن عبد المطلب !يا ابن هاشم ! يا ابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه، وعند بيته تفكون العانى وتطعمون الأسير.. جئنا فى ابننا، فامتن علينا، وأحسن إلينا فى فدائه، فإنا سندفع لك الفداء. فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم (دعوه فخيروه، فإن اختاركم، فهو لكم بغير فداء، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى).

فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له: هل تعرف هؤلاء؟ قال نعم. قال من هما؟ قال زيد: هذا أبى، وهذا عمى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك، فاخترنى أو اخترهما).

فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحدا، أنت منى بمكانة الأب والأم:

فقال: ويحك يا زيد!

أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟!

قال زيد: نعم! إنى قد رأيت من الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا.

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر، وقال (يا من حضر، اشهدوا أن زيدا ابنى: أرثه ويرثنى).

فلما رأى أبوه وعمه ذلك: طابت أنفسهما وأنصرفا، نزلت الرسالة على محمد صلوات الله وسلامه عليه، فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء.

ولم يفارق النبى صلوات الله وسلامه عليه لحظه، فأحبه النبى حبا شديدا.

وأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى الهجرة لأصحابه. وهاجر زيد، ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة. ولما هاجر الرسول الأعظم إلى(يثرب) وآخى بين المسلمين: كان حمزه سيد الشهداء، وزيد: أخوين فى الله ثم آخى النبى الأعظم بعد مقتل حمزه بينه وبين أسيد بن حضير. قامت المعارك بين المسلمين والمشركين، وكان زيد من الرماة المذكورين، فشهد

بدرا وأحدا: واستخلفه الرسول صلى الله عليه وسلم على المدينة حين خرج إلى (المريسيع)، وشهد(الخندق) و(الحديبية) و(حنينا).

وخرج(زيد) أميرا فى سبع سرايا: أولها(القردة)، فاعترض لعير قريش فأصابها، وأفلت أبوسفيان منهم، وأسر (زيد) (فرات بن حيان العجلى).

وقدم بالعير على النبى صلى الله عليه وسلم، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون.

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: (ما بعث رسول الله زيد بن حارثة فى جيش قط، إلا أمره عليهم، ولو بقى بعده: لاستخلفه).

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو الروم، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين، وعقد لزيد، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلا: "عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد: فجعفر بن أبى طالب، فإن أصيب جعفر: فعبد الله بن رواحة".

وتحرك الجيش الإسلامى بقيادة لواء الإسلام(زيد بن حارثة).

* * *

أليس فى هذا المعنى ما يعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله هو الذى جعل من العبيد سادة، ومن المستضعفين أساتذة وقادة؟

هذا (زيد) يقود جيشا فيه جعفر الطيار، ابن عم رسول الله الشريف الكريم، فيه خالد بن الوليد، وخالد هو سيف الله المسلول، ومن بعد زيد: قاد ابنه (أسامة) الحملة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه سلم، قادها إلى

فلسطين، كان على رأس جيش فيه أبو بكر الصديق وعمر الخليفة فاروق هذه الأمة.

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى؟ إنه الإسلام الذى كرم البشرية، وزكى النفوس، وطهر القلوب ! سيدى أبا القاسم يا رسول الله:

الدين والدنيا لنا جمعتهما لك شرعة قدسية غراء والمسلمون جسد، إذا عضو شكى، سهرت له الأعضاء.

سار المسلمون، وعلى رأسهم زيد، حتى وصلوا إلى (مؤتة)، وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف، وهم ثلاثة آلاف فقط، وهناك تردد الناس قليلا.

ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها؟! وتناولته السيوف بالطعن، وهو يقاتل دون راية رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وأخيرا: استشهد الأمير.

أيتها النفس الكبيرة !

لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة البنوة، حيث قال: (زيد ابنى)، ثم أمرك على المسلمين، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين.

وفى المدينة وقف النبى صلى الله علية وسلم يقول:

(استغفروا لزيد: لقد دخل الجنة وهو يسعى)، ثم أتى أهله، فجهشت بنت زيد بالبكاء، فبكى النبى صلى الله عليه وسلم حتى انتحب، فقال له

سعد بن عبادة: يارسول الله ما هذا؟ فقال له الرسول صلى الله عليه و سلم: (يا سعد: هذا شوق الحبيب إلى الحبيب).

* * *

يرحمك الله يا زيد بن حارثة ! يامن أثنى عليك رسول الله خيرا ويا من انعم عليك الله بالإسلام، أنعم رسول عليك بالعتق.. يا من ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة، فلقيته شهيداً، و عشت فى دار الكرامة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر !

(وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (آل عمران:١٦٩-١٧٠).

بلال بن رباح

مؤذن رسول الله (وكفى بالأذان شرفا)

أليس المؤذن هو الذى يرفع كلمة التوحيد عالية يشنف بها الآذان، ويملا بها القلوب عزة وكرامة؟

كان (بلال) عبدا مملوكا لأمية بن خلف، ولاقى من الأذى فى سبيل عقيدته مالا يقوى عليه أحد غيره، فوقف من التعذيب و التنكيل موقف الجبل الأشم، لا تحركه العواصف، ولا تؤثر فيه الرياح القواصف.. كان كلما اشتد عليه الأذى، وتضاعفت أمامه الكروب: ازداد إيمانا على إيمانه.

بلغ من قسوة أمية بن خلف أنه كان يطرحه على رمضاء مكة وقت الظهيرة، حيث الشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية، ويسيل منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه.

ولا عجب ! فأمية عرفه التاريخ بإنه رجل حديد اللسان، حديد الوجه، حديد القلب.. لو وزعت قسوة قلبه على الناس، ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم.

كلما اشتد الأذى ببلال: كان يردد هذا النشيد الخالد: أحد أحد فرد صمد، لا والد ولا ولد !

أجل يا بلال ! إن الله واحد فى ذاته لا شريك له، واحد فى صفاته لا نظير له.. إنه رب السماء والفضاء والجبال والشجر.. إنه رب عزيز قادر، له الجبين قد سجد.

ويردد (بلال) هذه الكلمات كلما أمره أمية بالكفر، ويشطاط عدو الله غضبا، فيقول له العبد المؤمن: إن أكن عصيتك فقد أطعت الله، عذب ما شئت فإنك إنما تعذب جسدى، أما روحى فلن تنال منها شيا؟!

لله درك يا بلال: لقد ضربت المثل الأعلى فى الصمود والثبات على المبدأ الحق، حتى جعل لله لك من الضيق فرجا، قد تقدم الصديق رضى الله عنه فاشتراك وأعتقك، وكنت صاحب المكانة المرموقة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عرفت بالصوت الندى فى الأذان، حتى قال عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك أندى صوتا. وكان لك الشرف العظيم أن تعلن الأذان من فوق بيت الله الحرام، يوم الفتح الأعظم، حيث اشرأبت الأعناق، وقال بعض أهل مكة من ذوى النفوس التى ملكها الكبر: ألم يجد محمد غير هذا ليؤذن؟ فرد عليهم القرآن الكريم فى صراحة ووضوح وحزم و عزم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:١٣).

سرعة بديهته رضى الله عنه:

لا ننسى ذكاءك وسرعة بديهتك، وحضور حجتك، عندما سألك سائل، فقال لك يابلال: ابن من أنت؟ فقلت له على الفور: أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة.

صدقت يا بلال، فرسول الله يؤيدك كل التأييد، إذ يقول: "كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى".

ولا ينكر أحد مكانتك فى قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم لقد غضب من أبى ذر الغفارى الصحابى الزاهد الورع، عندما قال لك لحظة غضب:

يا ابن السوداء، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذلك: امتلأ غضبا وقال فى حدة وشدة: "يا أبا ذر: أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية"، وأخذت هذه الكلمات كل مأخذ، وكانها سهام بتارة، جعلت أبا ذر رضى الله عنه يضع خده على الرمال ويقول: يابلال: طأ على خدى بقدميك !

إنه الأدب والخلق الذى تربى عليه أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

إذا أخطأوا، أو ظلموا أنفسهم، أو شعروا بانحراف فى النفس: استيقظت لواعج الوجدان، فذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ! دعابة لطيفة:

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى هؤلاء النفر الدين أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام والعتق: يبش لهم ويبتسم.

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا ذات يوم – وكان يوم الأضحى – بم ضحيت يا بلال؟ فقال يا رسول الله: لم أجد إلا (ديكا) فضحيت به، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعابة لطيفة: (مؤذن، ضحى بمؤذن).

وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يمزح، ولا يقول إلا حقا.

فرحمك الله يا بلال، يا من رفعت إلى مكانة فى الإسلام عالية مرموقة، ونلت من الله فضلا عظيما. وأجرا كريما.

سلمان الفارسى

الرجل الذى بحث عن الحقيقة العليا، ونخل مخزون فكره، وقدح زنا رأيه فى سبيل الوصول إلى الحق.

نشأ بين قوم فى بلاد الفرس، يعبدون النار من دون الله، وكان أبوه ق جعله قائما على شأن النار يغذيها بالوقود إذا ما أوشكت أن تضعف. ودارت فى نفسه وعقله أفكار وتساؤلات.. هل يليق بالإله أن يكون محتاج إلى عباده؟ وماذا يحدث لو أنه أهمل مده بالوقود؟ لا بد أن تنطفى هذ النار.

أخيرا.. ولى هاربا، وهاجر من هذه البلاد يسعى وراء الحق، ويطلب الحقيقة.. ونزل على أحد الرهبان، فدله الراهب على أن الحق فى شريع محمد خاتم الأنبياء.. وولى سلمان وجهه شطر المدينةفى قافلة متوجهة إل هناك، لكن أحد اليهود المقيمين بيثرب ادعى أنه قد اشتراه، فصار (سلمان عبدا مملوكا لذلك اليهودى، يقوم على خدمته ورعاية شئونه.

ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة: أسرع سلمان ليختبر فيه الصفات التى أرشده إليها الراهب، الذى التقى به فى بلاد الشام من أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يقبل الصدقة، ولكنه يقبل الهدية، وأن خاتم النبوة دليل واضح على صدق دعواه، وتحققت هذه كلها فى رسول الله أمام سلمان، فأسلم، وتعاون المسلمون على شرائه من اليهودى، ث اعتقوه، فصار حرا، وكل منهم يريد أن ينسبه اليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لهم: (سلمان منا آل البيت).

وكان - (لسلمان) موقفه التاريخى المجيد يوم (الخندق).. عندما دلهمت الخطوب، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق، وصادف هذا الرأى بولا مطلقا فى نفوس المسلمين، فحفر الخندق، وكان حفره خير ويمن.

إننا لا ننسى ل (سلمان) هذا الموقف الإسلامى الجليل، ولا ننسى له لدة تمسكه وعمق تغلغله فى مفاهيم الإسلام.. قال له سائل: يا سلمان: من بوك؟ فقال له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين: أنا ابن الإسلام ! ولما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين (عمر) بكى، وقال ثلاث مرات وأنا ابن الإسلام !

أجل يا سلمان:

عمرك: ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
قد رفع الإسلام سلمان فارسى وقـد حط بالشرك النسيب أبو لهب

كان ((سلمان)) رجلا مجدا فى حياته، لا يعرف الكسل.. كان يكتسب قمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه.. كان يأتى ب ((خوص)) النخيل يصنع منه المكاتل يبيعها، ويقسم الربح أقساما ثلاثة: قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين، وقسم ينفق منه على أهله ونفسه، وقسم يعمل فيه فى التجارة !.

وقد صدق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يرضى لرضى سلمان، ويغضب لغضبه، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان، أكثر من اشتياقه إليها".

رحمك الله يا سلمان، جزاك عن الإسلام خيرا، يا من قال عنك الرسول صلى الله عليه وسلم: (سلمان منا، آل البيت).

هنيئا لك، ثم هنيئا لك بهذا الشرف الذى رفعك إليه سيد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه.

وخلاصة القول:

هذه نماذج كريمة لقوم جعل منهم الإسلام سادة وقادة.

لقد حاول الملأ من قريش أن يصرفوا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء المستضعفين وقالوا له بلسان الكبرياء والصلف: إن أردتنا أن نؤمن بك، فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك !و الله يشهد إنهم لكاذبون، وأن قلوبهم قد ران عليهم صدأ الجبروت والعناد.

فماذا كان جواب الإسلام على افترائهم؟

لقد مروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فوجدوه قد بسط رداءه لهؤلاء المستضعفين، وخفض لهم جناحه، لأن الله رد على هؤلاء المتكبرين بقوله: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) (الكهف:٢٨).

وقال أيضا: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) (الأنعام:٥٢).

بل لقد كرمهم القرآن تكريما دونه كل تكريم حيث قال تعالى: (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) (الأنعام: ٥٤).

وكان السيد الجليل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقيهم يقول: (مرحبا بمن أوصانى ربى بهم خيرا)).

أهمية الدعوة

بينما أنا أملى سطور هذا الكتاب إذ طالعتنا إحدى المجلات الإسلامية بوضوح تحت عنوان ((أهمية الدعوة)). ولما قرأت هذا الموضوع شعرت بعميق الأسى لما صارت عليه أحوال المسلمين، حتى أصبح الميدان أمام التيارات الجارفة مكشوفا تعربد فيه كيف شاءت،وتذكرت قول أمير الشعراء ((شوقى)) رحمه الله:

إذا زرت بعد البيت قبر محمد ... وأبصرت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة ... لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية ... وضاع أريج تحت كل حصاة
فقل لرسول الله: يا خير مرسل ... ابنك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها ... كأصحاب كهف فى عميق سبات
بأيمانهم نورا: ذكر وسنة، ... فما بالهم فى حالك الظلمات !!

إننى أسوق هذا الموضوع بنصه، ليقف كل مسلم على ما يحتويه،ولكى يكون مقدرا للمسؤلية العظمى، الملقاة على عاتقه.

ولقد تبين لنا أن الإسلام دعا إلى أمهات الفضائل، ونهى عن جميع الرذائل، ولم يجد المستشرقون والمبشرون - وأذنابهم من المستغربين - فى الإسلام ثغرة ينفذون منها لا شبهات واهية: كمسالة الرق، التى أحطناها بالبحث والتمحيص، فتبين وجه الحقيقة فيها،كما تبين أن الإسلام وقف من حلها موقفا يعد مفخرة له.

لكن مكمن العلة ومحل الداء، أن أعداء الإسلام يجدون من ينشر أباطيلهم، أما قضايا الإسلام: فالناس عنها غافلون !

وها أنا ذا أسوق بين يدى القارىء هذا الموضوع الذى كتبه اللوا. (محمود شيت خطاب) تحت عنوان ((أهمية الدعوة))

زار أحد الدعاة قطرا من أقطار غرب أفريقية، فسأل شيخا من رجال الدين الإسلامى فيه عن مصير ولده الذى كان يلقاه حين يحل فى بيت أبيه الشيخ ضيفا، فقال له الشيخ وهو يتنهد: (لقد تمدن)

وتعبير: (تمدن فلان) أصبح من التعابير الشائعة فى كثير من أقطار القارة السوداء، ومعناه: تنصر فلان، وهو يطلق على المسلم الذى ارتد عن دينه فأصبح نصرانيا، وعلى غير المسلم الذى اعتنق النصرانية أيضا.

وسبب اقتران التنصر بالتمدن فى هذا التعبير، هو أن الإرساليات التبشيرية فى أفريقية - (التى تعتمد على المؤسسات الدينية والمسيحية فى تمويلها وعلى الدول الاستعمارية وعلى شبكات المخابرات وشركات النفط والبيوت المالية الكبرى والقوى الاحتكارية العالمية) - قد أقامت مدارس ومعاهد وجامعات فى المناطق الحيوية من أفريقية، وحرمت على غير المسيحيين الانتماء إليها والتعليم فيها، فأصبح لزاما على غير المسيحيين - من مسلمين وغير مسلمين - أن يعتنقوا المسيحية أولا، ويثبتوا تمسكهم بها ثانيا، من أجل إتاحة الفرصة لهم للانتساب إلى تلك المدارس والمعاهد والجامعات التبشرية، حتى ينالوا شهاداتها العلمية فى النهاية: تلك الشهادات التى تؤهلهم لتسلم الوظائف الحكومية فى المجتمع، وتفتح أمامهم مجال العيش الرغيد.

من هنا: اقتران التنصر بالتمدن، فلا عجب أن يكون أحد رؤساء جمهوريات أفريقية حاليا يدين بالنصرانية، وهو من عائلة إسلامية، ولا يزال أهله يدينون بالإسلام !

لقد تطورات أساليب المبشرين فى نشر المسيحية، فلم يعودوا ينفرون من تعميد السود، ولم يعودوا يتخوفون من الحقوق التى ينالها الملون الذى يعمد، كما أصبح التبشير وثيق الصلة بالاستعمار والشركات الاحتكارية، ودوائر المخابرات، لهذا: لم يبق المبشرون جامدين على أساليبهم القديمة، التى طبقوها فى أواخر القرن العشرين، ولم يعد بإمكان الداعية المسلم أن يحول جموعا أكبر، بمجهود أقل، من مجهود المبشرين.

ومن المذهل حقا، أن المسلمين لا يزالون يرددون ما زعمه جماعة من المستشرقين فى مؤلفاتهم عن (الدعوة إلى الإسلام)، و(انتشار الإسلام).

من هذه المزاعم: "أن الإسلام ينتشر انتشارا سريعا فى أفريقية، بالرغم من وسائل الدعاة المسلمين البدائية المرتجلة، وعلى الرغم من أساليب المبشرين المتطورة".. إلخ.

إن هؤلاء يهدفون من أقوالهم هذه أمرين: الأول: تحذير المسلمين حتى لا يقوموا بواجباتهم فى الدعوة إلى الله كما ينبغى، والثانى: استدرار عطف ممولى المبشرين لزيادة معوناتهم ودعمهم.

والواقع أن الإسلام ينحسر أمام التبشير المسيحى، خاصة فى أفريقية واندونيسيا.

واستنام المسلمون واستسلموا لبسات عميق بفعل هذه المزاعم المخدرة ولكن الواقع المرير يكذب هذه المزاعم وأجراس الخطر تدق بشدة، لعلها توقظ الغيورين من المسلمين على ما يتهدد الإسلام من أخطار جسيمة داخل بلادهم وخارجها على حد سواء.

وقد انتبه أحد سفراء الدول العربية إلى تزايد نشاط المبشرين في أفريقية، فكتب إلى دولته تقريرا يؤكد فيه: "أنه لا إسلام فى أفريقية بعد عشرين عاما، إذا لم يتدارك المسلمون أمرهم".

لقد أصبح الفكر الإسلامى غير واضح المعالم فى البلاد الإسلامية ذاتها، بل أصبح هذا الفكر مشوها إلى أبعد الحدود، بفعل العصور المظلمة وتأثير الإسرائيليات التى اقتحمت حرمه، وبترسبات الاستعمار الفكرى البغيض الذى هو أخطر أنواع الاستعمار على الإطلاق.

فما أحوج المسلمين اليوم إلى دعاة من الطراز الرفيع، يفهمون الفكر الاسلامى، ويجلون عنه الصدأ والغبار، ويعيدونه كما كان، منهجا مثالا للحياة الدنيا، وسبيلا هاديا إلى الآخرة.

وإذا كانت حصون المسلمين تنهار من الداخل: فكيف تقوى على مصاولة العدو الخارجى؟

كما أن الفكر الإسلامى يعانى من هجمات خارجية خطيرة، يخطط لها الاستعمار الجديد، معتمدا على المبشرين والمستشرقين والصهيونية العالمية و دعاة التحلل والإلحاد.

ولعل آثار المستشرقين التى تزجى المديح والثناء للتراث الإسلامى هى كثر خطورة وضررا من آثاره التى تكيل القدح والنقد، لأن المدح والثناء حذر الرأى العام الإسلامى، ويلفته عن حاضره ومستقبله، وشفاء أمراض جتمع ما، لا يمكن أن يتم بذكر أمجاد ماضيه، فحسب، بل بالعمل الجاد لدائب فى الحاضر و المستقبل.

لقد بهر الغرب المسلمين بتفوقه فى العلوم التطبيقية، فأراد جماعة من علماء المسلمين أن يقحموا آيات من الذكر الحكيم فى المجال العلمى، زعموا أن القرآن الكريم سبق علماء العصر فى نطاق العلوم التطبيقية غير التطبيقية أيضا.

ولست أشك فى وجود آيات بينات تدل بوضوح على السبق العلمى قرآن الكريم، ولكن إقحام بعض الآيات إقحاما: لا يشرف القرآن بقدر ما شرف العلم، لأن القرآن (رأس)، فلا ينبغى أن نجعله فى غير مكانته حجة أو بأخرى.

إن هذا التشبث يضطرنا إلى طرح مشكلة الإسلام والعلم بشكل جديد ناسب سمو الدين ومنطق العلم، بحيث لا نبحث فى الآيات الكريمة: هل كر فيها شىء عن غزو الفضاء أو تحليل الذرة؟ وإنما نتسائل هل فى وحها ما يعطل حركة العلم؟ أو فى روحها ما يحث عليه ويشجعه وينميه؟

يجب أن نتساءل: هل يستطيع القرآن الكريم أن يخلق فى المجتمع إسلامى: المناخ المناسب للروح العلمى، وأن يطلق الأجهزة النفسية ضرورية لتقدم العلم والعلماء كما كرمها القرآن الكريم، وصدق الله

العظيم حيث يقول: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (الزمر: ٩).

كما أن المناخ الذى هيأه القرآن للمسلمين، هو الذى جعلهم يقودون الحضارة العالمية قرونا طويلة.

إن المواد الأولية لبناء أفكار (حية) : متيسرة فى (القرآن الكريم) والحديث النبوى الريف، والتراث العربى الإسلامى العظيم.. وهذه الأفكار كفيلة بإظهار الشخصية الإسلامية على حقيقتها: قوية لا تضعف، متماسكة لا تتخاذل، أخلاقية لا تنحل، عزيزة لا تهون وهى كفيلة بأن تصمد أمام تيار الصراع الفكرى الجارف، لأنها تعنى بالمادة والروح، والعقل والوجدان، ولا تقتصر على المادة والعقل.

إنها مادة وروح، وليست مادة فقط، وهى عقل وقلب، وليست عقلا فقط، والمادة تفنى، والروح باقية، والعقل يتبدل، والقلب سر المحبة والعطف والإخاء.

إن العالم الإسلامى تخلص - أو أوشك أن يتخلص - من الاستعمار العسكرى والاستعمار السياسى والاستعمار الاقتصادى،ولكنه لا يزال يرزح تحت أثقال الحضارة الغربية، بما فيها من خير وشر وهى حضارة مسيحية كما هو معروف.

وإذا كان هناك ما يسوغ استيراد ما فى الحضارة الغربية من (خير)، فما المسوغ لاستيراد ما فيها من (شر)؟

لقد ضاعت معالم الشخصية الإسلامية فى خضم مد الشخصية الغربية المسحية، لأن المسلمين عانوا من الفراغ الفكرى ردحا طويلا، فتسربت إليهم حضارة الغرب بشتى الوسائل لملء هذا الفراغ، والأفكار (الحية) الإسلامية، هى التى تعيد للمجتمع الإسلامى مكانته المرموقة، فما يصيب أى مجتمع: يكون من جراء ضحالة أفكاره، لا من جراء قلة أشيائه.

لابد من وضع الأسس الإسلامية الرصينة للمجتمع الإسلامى، بحيث تكون هذه الأسس منهجا كاملا للحياة باستطاعته مواصلة الصراع الفكرى الرهيب.

ولابد من تقنين الشريعة الإسلامية الغراء، بحيث تحل محل القوانين الوضعية الحديثة.

ولابد من ترجمة تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية والتراث الإسلامى إلى اللغات الأجنبية المختلفة، ليعود الإسلام من جديد إلى قيادة الفكر البشرى نحو النور والحق والسلام.

والسبيل إلى ذلك: هو تعاون السلطات الحاكمة مع العلماء.

إن السلطات الحاكمة مطالبة اليوم بتدارك المجتمع الإسلامى من التميع والانهيار، وقد سجل التاريخ صفحات باهرة للذين وحدوا من أجل الجهاد وجاهدوا من أجل التوحيد، فإن ما عند الناس لا يبقى، وما عند الله خير وأبقى.

والعلماء مطالبون اليوم أن يتخذوا من العلم (عبادة)، كما فعل السلف الصالح من علماء المسلمين، وألا يتخذوه (تجارة)، كما فعل الذين نسوا الله فنسيهم وأنساهم أنفسهم.

إن التاريخ يذكر - بمزيد من التقدير والإعجاب - جهود الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فى نشر الإسلام. فقد نقص خراج مصر فى عهده لدخول الأقباط أفواجا فى دين الله، فاقترح (والى) مصر على الخليفة ألا يعفى الذين يدخلون الإسلام من الجزية، ولكن الخليفة الورع أبى أن يجيب هذا (الوالى) إلى طلبه، قائلا :إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا، ولم يبعثه جابيا!

ولا تزال قولته هذه ترن فى أذن الزمن، وستبقى. وعين عمر بن عبد العزيز سنة مائة من الهجرة (١٨١٧):

إسماعيل ابن عبد الله (واليا) على شمال أفريقية، وبعث عشرة علماء ليفقهوا البربر فى أمور دينهم، ولا يزال التاريخ يذكر هذا العمل الدينى الحضارى بأعظم التقدير والإعجاب.

وقد أوفد الدعاة إلى بلاد (السند) التى فتحها محمد بن القاسم،فاستجاب كثير من زعماء (السند) لدعوة الخليفة التقى، ودخلوا فى دين الله أفواجا.

ما يقال عن بلاد (السند) يقال عن بلاد (ما راء النهر).. استجاب كثير من أهلها لدعوة الحق التى أطلقها عمر بن عبد العزيز. وقد امتاز عهده بحركة تحول واسعة النطاق إلى الإسلام، فنظم حركة ملؤها الحماسة فى نشر الدعوة، وقدم للشعوب لونا من ألوان التشجيع لقبول الإسلام.. فقد

أعطى فى إحدى المناسبات ألف دينار لقائد نصرانى (بطويق) تألفه بها على الإسلام،وقد كتب إلى ملك الروم (لاون الثالث) يدعوه إلى الإسلام، والغى بعض الضرائب التعسفية المفروضة على المسلمين وغير المسلمين.

ولم يقتصر تقدير خدمات عمر بن عبد العزيز للإسلام على المؤرخين المسلمين فى مختلف العصور، بل حاز تقدير المؤرخين غير المسلمين أيضا، وكمثل على ذلك: فإن أحد المؤرخين المسيحين يضيف إلى اسم (عمر) كلما ذكره: قوله (رضى الله عنه)، أما العلماء الذين نهضوا بالدعوة أيام عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، فلا يزالون مفخرة تاريخ العلماء العرب المسلمين، وسيبقون كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد أمضى عمر بن عبد العزيز فى الحكم ما يقرب من ثلاث سنوات، ولكنه شغل المؤرخين، ولا يزال يشغلهم حتى اليوم، لأنه كان مؤمنا حقا، وكان إيمانه إيجابيا، فرفع ذكر الله شرقا وغربا، فرفع الله ذكره فى كل مكان وفى كل زمان.

وعاش فى عهده علماء كثيرون من التابعين، ولكن الذين نذروا حياتهم لدعوة لا يزالون يذكرون وحدهم بالإجلال و الإكبار ولا تزال آثارهم باقية حتى اليوم.

فهل يكفى عمر بن عبد العزيز مثالا يحتذى به أصحاب السلطة من مسلمين اليوم وغدا، وهل يكفى دعاته من العلماء مثالا يحتذى بهم علماء مسلمين اليوم وغدا؟

إن الطريق أمام العاملين المخلصين للعودة إلى الإسلام فى الداخل ونشره بين الناس فى الخارج: مفتوح، والمسلمون مطالبون بأداء حق الله عليهم فى الدعوة إلى دين الحق والخير والسلام، وصد غارات أعداء الكثيرين عنه.. وما أكثر هؤلاء الأعداء.

إن الدعوة إلى الإسلام واجب دينى، يقع على عاتق المسلمين، حكاما ومحكومين، وواجب وطنى، دفاعا عن وجودهم ومقوماتهم فى الحياة، لأن بقاءهم ببقاء عقيدتهم، وقوتهم بقوتها فإذا ضعفت: ضعفوا، وإذا انهارت انهاروا.

والدعوة إلى الإسلام: واجب إنسانى، لأنه يهدى للتى هى أقوم، ويقتلع الشر من جذوره، وينشر الفضيلة والطهر والمحبة، ويقضى على عوامل الفساد، ويكرم بنى آدم فى الدنيا والآخرة.

فمن سيكون خليفة عمر بن عبد العزيز، من المسئولين العرب والمسلمين فى القرن العشرين؟ ومن سيكون خليفة دعاة عمر بن عبد العزيز من علما المسلمين فى القران العشرين؟

وصدق الله العظيم حيث يقول: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (يونس ٢٦).

ذكر الله تبارك وتعالى

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران:١٩٠-١٩١).

قال أحد العلماء العارفين بالله: إذا ذكر الصالحون: نزلت الرحمة، فقال له أحد الجالسين: فكيف إذا ذكر الله؟ قال العالم العارف: إذا ذكر الله: نزلت الطمأنينة، أوما قرأت قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد:٢٨)؟!.

أيها المسلم الكريم:

ليس الذكر كلمات جوفاء يرددها اللسان دون حضور القلب والعقل، فإنه إذا كان كذلك: كان ذكرا مبتورا، ولذلك: فإن الله جل شأنه قرن بين الذكر والتفكر فقال:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)).

وقد رأى الإمام على كرم الله وجهه رجلا يستغفر الله بصورة خالية من الخشوع واستحضار الفكر، فقال له: يا هذا إن استغفارك هذا، فى حاجة إلى استغفار!

كما أن الذكر ليس قاصرا على اللسان وحده، بل إنه يشمل البدن كله.

ولذا قالوا: إن الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين: البكاء، وذكر الأذنين: الإصغاء، وذكر اللسان: الثناء، وذكر اليدين: العطاء، وذكر البدن: الوفاء، وذكر القلب: التسليم والرضاء، وذكر الروح: الخوف والرجاء.

وما أجمل المسلم إذا تحلى بتلك الصفات العالية: اليقين، والصبر والشكر، والخوف، والرجاء، والزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة.

حقيقة الذكر

إنما دفعنى للكتابة فى هذا الموضوع: ما لاحظته من الكثيرين الذين يريدون أن يعرفوا كيفية الذكر على هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم دون اختراع أو ابتداع، فيسلكوا السبيل القويم على صواب وهدى، فسألت الله أن يوفقنى للكتابة فى هذا الموضوع، عسى أن ينفع به كل سالك سبيل الرشد.

ولقد جلت بعقلى ووجدانى فى كتاب الله الكريم وكتب السنة المطهرة، وخرجت منها بهذه الأحكام التى تتعلق بذكر الله جل شأنه.

ما هو الذكر؟

الذكر: هو ما يجرى على اللسان والقلب من تسبيح الله تبارك وتعالى، وتنزيهه، وحمده، والثناء عليه، ووصفه بصفات الكمال، ونعوت الجلال والجمال.

وقد أمر الله تعالى بالإكثار منه فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) (الأحزاب:٤١-٤٢).

وأخبر أنه يذكر من يذكره، فقال جل شأنه:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) (البقرة:١٥٢)، وقال فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى ومسلم: "أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى: فإن ذكرنى فى نفسه: ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملا: ذكرته فى ملإ خير منهم، وإن اقترب إلى شبرا: تقربت إليه ذراعا: وإن اقترب إلى ذراعا: تقربت إليه باعا: وإن أتانى يمشى: أتيته هرولة"

وأنه سبحانه اختص أهل الذكر بالتفرد والسبق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "سبق المفردون قالوا: وما المفردون يارسول الله؟ قال: "الذاكرون الله كثيرا والذاكرات". رواه مسلم.

وأنهم هم الأحياء على الحقيقة.. فعن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر: مثل الحى والميت" رواه البخارى.

والذكر: رأس الأعمال الصالحة: من وفق له، أعطى منشور الولاية، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على أحيانه، ويوصى الرجل الذى قال له: إن شرائع الإسلام قد كثرت على، فأخبرنى بشىء أتشبث به، فيقول له: (لايزال فوك – فمك – رطبا من ذكر الله)، ويقول لأصحابه: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى يارسول الله، قال: ذكر الله" رواه الترمذى وأحمد والحاكم.

والذكر سبيل النجاة.. فعن معاذ رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: قال: "ما عمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله: من ذكر الله عز وجل" رواه أحمد.

وقال أيضا: "إن ما تذكرون من جلاله عز وجل من التهليل والتكبير والتحميد: يتعاطفن حول العرش، لهن دوى كدوى النحل، يذكرون لصاحبهن، أفلا يحب احدكم أن يكون له ما يذكر به"

فضل الإكثار من ذكر الله تبارك وتعالى

أرشد الله عباده إلى الإكثار من ذكره.. كذلك جاءت الأحاديث النبوة الشريفة مبينة ما أعده الله للذاكرين من أجر عظيم، وفضل عميم.

جاء فى الحديث القدسى قوله تعالى: "لا يذكرنى عبد فى نفسه، إلا ذكرته فى ملأ من ملائكتى، ولا يذكرنى فى ملأ إلا ذكرته فى الملأ الأعلى".

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه"، رواه ابن ماجه.

والمعية هنا: دليل التكريم الإلهى، والرفعة الربانية للعبد الذاكر، وكفى بمعية الله شرفا وقدرا.

ها هو ذا معاذ بن جبل رضى الله عنه يحدثنا فيقول:

"إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قلت "أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله".

وتعالى معى يا أخى المسلم لنطوف هذه الطوفة المباركة، ونلقى بنظرة على رجل رآه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وقد نال من الرفعة المكانة القصوى.

يقول صلى الله عليه وسلم: "مررت ليلة أسرى بى برجل مغيب فى نور العرش، قلت من هذا؟ أهذا ملك؟ قيل لا، قلت نبى؟ قيل لا، قلت من

هو؟ قال: هذا رجل كان فى الدنيا لسانه رطب من ذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولم يستسب لوالديه" رواه ابن أبى الدنيا.

وقد بلغ من مكانة الذكر عند الله تبارك وتعالى أنه قرنه بأصول الدين، فجمع بينه وبين الوحدانية والصلاة والصوم والصدقة.

جاء فى حديث جامع وشامل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله أوحى إلى يحي بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فكأنه أبطأ بهن، فأتاه عيسى فقال: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تخبرهم وإما أن أخبرهم، فقال ياأخى لا تفعل فإنى أخاف إن سبقتنى بهن أن يخسف بى أو أعذب. قال: فجمع بنى إسرائيل ببيت المقدس حتى امتلأ المسجد، وقعدوا على الشرفات،ثم خطبهم، فقال: إن الله أوحى إلى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن: أولهن: لا تشركوا بالله شيئا، فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق ثم أسكنه دارا فقال اعمل وارفع إلى، فجعل يعمل، ويرفع إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ فإن الله خلقكم ورزقكم، فلا تشركوا به شيئا. وإذا قمتم الصلاة فلا تلتفتوا، فإن الله يقبل بوجهه إلى وجه عبده مالم يلتفت، وأمركم بالصيام، ومثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صرة مسك كلهم يحب أن يجد ريحه، وإن الصيام أطيب عند الله من ريح المسك. وأمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقربوه ليضربوا عنقه، فجعل يقول: هل لكم أن أفدى نفسى منكم؟ وجعل يعطى القليل والكثير حتى فدى نفسه. وأمركم بذكر الله كثيرا،

مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره حتى أتى حصنا حصينا فأحرز نفسه فيه، وكذلك العبد: لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله) رواه الترمذى.

* * *

أرأيت إلى البراعة فى التشبيه، وإلى علو الطبقة فى التصوير، وكيف ضرب الحديث لكل ركن من هذه الأركان صورة مجسمة محددة المعالم، حتى وصل إلى الحصن الحصين والركن الركين، وهو ذكر الله؟

لقد جاء فى هذا الحديث وصف الذكر على أنه حصن.. وحصن من أى شىء؟ من الشيطان.

هل هناك حصن أقوى من هذا الذى يقى صاحبه ويحميه من كيد الشيطان: إنسيا كان أو جنيا؟

قال سبحانه فى شأن المؤمنين: (ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) (آل عمران: ١٣٥).

وليس هناك شك فى أن العبد الذى يستحضر عظمة الله فى قلبه ويراقب هيمنة سلطانه الأعلى على نفسه.. لا شك أنه عبد محفوظ بالعناية، قال تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (الأعراف: ٢٠٠-٢٠١).

هذا، وقد جاء فى الحديث الشريف ما يفيد أن الذكر أحد أربعة أشياء يقوم عليها خير الدنيا والآخرة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربع من أعطيهن فقد أعطى خيرى الدنيا والآخرة: قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وبدنا على البلاء صابرا وزوجة لا تبغيه حوبا[٢] فى نفسها وماله" رواه الطبرانى. وروى عن معاذ رضى تاه عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله فقال أى المجاهدين أعظم أجرا؟ قال: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا. قال فأى الصالحين أجرا؟ قال: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا، ثم ذكر الصلاة والزكاة و الحج والصدقة، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا، فقال أبو بكر لعمر:

يا أبا حفص: ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل! رواه أحمد والطبرانى.

لقد دل هذا الحديث الشريف على أن معيار التفضيل: هو كثرة الذكر مقترنا بالعبادة.. فكلما كثر ذكر العبد مع أداء الفريضة: كلما ازداد فضلا واغتنم خيرا.

وها هى ذى صحابية جليلة: (أم أنس بن مالك)، رضى الله عنهما تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوصية، فيوصيها بهذه الأشياء.. قال لها: "اهجرى المعاصى، فإنها أفضل الهجرة، وحافظى على الفرائض، فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله، فإنك لا تأتين الله بشىء أحب إليه من كثرة ذكره" رواه الطبرانى

---

(٢) حوبا: أى إثما

فإياك يا أخى والغفلة عن ذكر الله، واحذر أن تفوتك ساعة تكون فيها فلا عن ذكر الله، واحذر أن تفوتك ساعة تكون فيها غافلا عن ذكره رك تعالى.. فقد روى معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله لى الله عليه وسلم: "ليس يتحسر أهل الجنة، إلا على ساعة مرت بهم لم كروا الله تعالى فيها" رواه الطبرانى

وأعلم بأن الذكر والشكر قرينان متلازمان !

جاء فى الحديث القدسى الجليل: "يا ابن آدم: إنك إذا ذكرتنى: شكرتنى، ذا نسيتنى: كفرتى".

هذا مصداق قوله تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ) بقرة:١٥٢).

فضل مجالس الذكر

رغب الإسلام فى الاجتماع على ذكر الله فى صورة تليق بجلال الذك
ولا تخرج عن حدود ما رسمه الشرع الحكيم فى قوله تعالى (وَاذْكُرْ رَ
فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَ
مِنَ الْغَافِلِينَ) (الأعراف:٢٠٥).

ومجالس الذكر تغشاها الرحمة، وتتنزل بأصحابها السكينة، وتحف ا
الملائكة المكرمون:

جاء فى الحديث الشريف أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "إن
ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإن وجدوا قوما يذكرو
الله: تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قا
فيسألهم ربهم – وهو أعلم ر بهم – ما يقول عبادى؟ قال يقولون: يسبحوا
ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال فيقول: هل رأونى؟ قال: فيقولون:
والله يارب، ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأونى؟ قال: يقولون: لو رأو
كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا. قال فيقول: ف
يسألونى؟ قال يقولون: يسألونك الجنة، قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال
يقولون: لا، والله يارب ما رأوها. قال فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال
يقولون: لو أنهن رواها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظ
فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟

قال يتعوذون من النار، قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال:يقولون: لا وا
ما رواها، قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟قال: يقولون لو رأوها كانوا أش
منها فرار، واشد لها مخافة. قال فيقول: أشهدكم أنى قد غفرت لهم. قال

ل ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال هم م لا يشقى بهم جليسهم" رواه البخارى.

هذا، وقد خرج النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم على حلقة من حابه، فقال "ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا لام ومن به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا آلله ما أجلسنا إلا ، قال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتانى جبريل فأخبرنى أن عز وجل يباهى بكم الملائكة" رواه مسلم.

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه م قال: "يقول الله عز وجل يوم القيامة: سيعلم أهل الجمع: من أهل يم؟ فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال: أهل مجالس الذكر" رواه د.

* * *

لقد بلغ من مكانة الذكر فى قلوبهم أنهم كانوا يجعلونه بمثابة الإيمان لونه منزلة الإيمان.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقى جل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تعالى نؤمن بربنا ة. فقالها ذات يوم لرجل، فغضب الرجل، فجاء إلى النبى صلى الله وسلم فقال يا رسول الله: ألا ترى إلى ابن رواحة؟ يرغب عن إيمانك إيمان ساعة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله ابن رواحة، إنه ب المجالس التى تتباهى بها الملائكة"! رواه أحمد.

وعنه أيضا رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من قوم اجتمعوا يذكرون عز وجل لا يريدون بذلك إلا وجهه ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفورا لكم، قد بدلت سيئاتكم حسن رواه أحمد.

وروى عن انس رضى الله عنه أيضا عن النبى صلى الله عليه و قال: "إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر، فإذا أتوا عليهم، بهم، ثم يقفون وأيديهم إلى السماء، إلى رب العزة تبارك وتعالى، فيقوا ربنا أتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك، ويتلون كتابك، ويص على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ويسألونك لآخرتهم ودنياهم، ف الله تبارك وتعالى: غشوهم رحمتى، فهم الجلساء لا يشقى بهم جليس رواه البزار.

وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن رواحة، وهو أصحابه: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنكم الملأ الذين أم الله أن أصبر نفسى معكم، ثم تلا هذه الآية: واصبر نفسك مع الذين يد ربهم بالغداة والعشى يريدون جهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة ا الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا اتبع هواه وكان أمره فرطا. أم ما جلس عدتكم إلا جلس معهم عدتهم من الملائكة: إن سبحوا الله تع سبحوه، وإن حمدوا الله: حمدوه، وإن كبروا الله كبروه، ثم. يصعدون الرب جل ثناؤه، وهو أعلم بهم، فيقولون: يا ربنا: عبادك سبحوك فس وكبروك فكبرنا، وحمدوك فحمدنا، فيقول ربنا جل جلاله: يا ملائ أشهدكم أنى قد غفرت لهم".

أدب الذكر

أما وقد علمنا فضل مجالس الذكر والاجتماع عليه، فإنه ينبغى أن نعلم
ا خاصة بمراعاة الذكر.

والمقصود من الذكر: تزكية الأنفس، وتطهير القلوب، وإيقاظ الضمائر.
ى هذا تشير الآية الكريمة: (وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
نْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) (العنكبوت: ٤٥).

أى أن ذكر الله فى النهى عن الفحشاء والمنكر: أكبر من الصلاة، وذلك
الذاكر حين ينفتح لربه جنانه، ويلهج بذكره لسانه، يمدده الله بنوره،
اد إيمانا إلى إيمانه، ويقينا إلى يقينه، فيسكن قلبه للحق، ويطمئن به:
ينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)
عد:٢٨).

وإذا اطمأن القلب للحق: اتجه نحو المثل الأعلى، وأخذ سبيله إليه، دون
تلفته عنه نوازع الهوى، ولا دوافع الشهوة.. ومن ثم: عظم أمر الذكر،
خطره فى حياة الإنسان.

ومن غير المعقول أن تتحقق هذه النتائج بمجرد لفظ يلفظه اللسان، فإن
كة اللسان قليلة الجدوى، ما لم تكن مواطئة للقلب وموافقة له.

وقد أرشد الله تبارك وتعالى إلى الأدب الذى ينبغى أن يكون عليه المرء
ء الذكر فقال: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ
لِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) (الأعراف: ٢٠٥).

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أنه يستحب أن يكن الذكر سرا لا تر به الأصوات.

وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الناس رف أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار فقال: "يا أيها الناس: أربعوا ع أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا. إن الذى تدعونه سميع قري أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته.."، كما تشير أيضا إلى حالة الر والرهبة التى يحسن بالإنسان أن يتصف بها عند الذكر.

كذلك من الأدب: أن يكن الذاكر نظيف الثوب، طاهر البدن، ط الرائحة.. فإن ذلك مما يزيد النفس نشاطا.

والأفضل أن يستقبل القبلة.

فإن خير المجالس: ما استقبل به القبلة.

فضل من قال لا إله إلا الله مخلصا

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "ما
ل عبد لا إله إلا الله قط مخلصا، إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى
ى العرش، ما اجتنبت الكبائر". وعنه أنه قال: "جددوا إيمانكم، قيل: يا
سول الله: وكيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله" (رواه
مد). وعن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:
فضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله" رواه النسائى،
بن ماجه، والحاكم.

فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
ل: "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى
حمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" رواه الشيخان والترمذى.

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:
أن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إلى مما
عت عليه الشمس" رواه مسلم والترمذى. وعن أبى ذر رضى الله عنه
ل: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبرك بأحب الكلام إلى
ه؟ قلت: أخبرنى يا رسول الله. قال: إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله
حمده" رواه مسلم والترمذى، ولفظه "أحب الكلام إلى الله عز وجل: ما
صطفى الله لملائكته: سبحان ربى وبحمده، سبحان ربى وبحمده". وعن
ابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "من قال سبحان
ه العظيم وبحمده: غرست له نخله فى الجنة" رواه الترمذى وحسنه.

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وس
قال: "استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قا
التكبير والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله" ر
النسائى والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وعن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قا
"لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى فقال: يا محمد: أقرىء أمتك منى السلا
وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراس
سبحان الله، والحمد الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر" رواه الترمذ
والطبرانى، وزاد: "ولا حول ولا قوة إلا بالله".

وعن مسلم: أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "أحب الكلام إلى
أربع، لا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، و
أكبر". وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وس
قال: "من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة: كفتاه" رواه البخار
ومسلم. أى أجزأ أتاه عن قيام تلك الليلة، وقيل كفتاه: ما يكون من الآف
تلك الليلة.

وقال ابن خزيمة فى صحيحه: (باب أقل ما يجزى من القراءة فى ق
الليل).. ثم ذكره.

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال النبى صلى الله عليه وس
"أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا
يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم الله الواحد الصمد: ثل
القرآن" رواه البخارى ومسلم والنسائى. وعن أبى هريرة رضى الله ع

ن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير – فى يوم مائة مرة: كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به: إلا أحد عمل أكثر من ذلك" رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه. وزاد مسلم والترمذى والنسائى: "ومن قال: سبحان الله وبحمده فى اليوم مائة مرة: حطت خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر".

الترهيب من عدم ذكر الله فى المجالس

عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما قعد قوم مقعدا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على النبى صلى الله عليه وسلم: إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة" رواه الترمذى، وروى أحمد بلفظ: "ما جلس قوما مجلسا لم يذكروا الله فيه كان عليهم تره" أى حسر وندامة، "وما من رجل يمشى طريقا فلم يذكر الله تعالى: إلا كان عليه تره وما من رجل أوى إلى فراشه فلم يذكر الله عز وجل: إلا كان عليه تره.

جاء فى (فتح العلام): إن ما جاء فى هذا الحديث، يدل على أن الذكر واجب، وكذلك: الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى المجلس، لا سيما مع تفسير (الترة): بالنار، أو العذاب، فقد فسرت بهما، فإن التعذيب لا يكون إلا لترك واجب أو فعل محظور.

ذكر كفارة المجلس

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من جلس مجلسا فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك: إلا كفر الله له ما كان فى مجلسه ذلك".

فضل الاستغفار

جاء رجل إلى الحسن البصرى رضى الله عنه، فشكى له قله المطر فقال له: استغفر الله، وجاء آخر فشكى له قلة المال فقال له:استغفر الله، وجاء ثالث فشكى له قلة البنين، فقال له استغفر الله، وشكى إليه رابع قلة الإنبات، فقال استغفر الله، قالوا: يا تقى الدين: كلما جاءك شاك قلت له استغفر الله، قال لهم: نعم، أوما قرأتم قوله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) (نوح:١٠-١٢)؟

عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يقول الله تعالى: "يا ابن آدم: إنك ما دعوتنى ورجوتنى: غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى: غفرت لك ولا أبالى، يا ابن آدم: إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا: لأتيتك بقرابها مغفرة" رواه الترمذى.

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: "من لزم الاستغفار: جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب" رواه أبو داوود والنسائى وابن ماجه والحاكم.

الذكر المضاعف وجوامعه

عن جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنها: أن النبى خرج من عندها، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة. فقال: "مازلت على الحال التى فارقتك عليها؟ قالت: نعم، قال النبى صلى الله عليه وسلم: "قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاه نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته" رواه مسلم وأبو دواد.

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأة وبين يديها نوى (أو حصى) تسبح الله به فقال: "أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا، أو أفضل؟ فقال: سبحان الله عدد ما خلق بين ذلك، وسبحان الله عدد ماهو خالق، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول لا قوة إلا بالله مثل ذلك" رواه أصحاب السنن والحاكم.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم أن عبدا من عباد الله قال: يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين، فلن يدريا كيف يكتبانها، ومعنى عضلت: أى اشتدت وعظمت، فصعدا ألى السماء فقالا: يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها؟ قال الله – وهو أعلم بما قال عبده – ما قال عبدى؟ قالا: يا رب إنه قد قال يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها" رواه أحمد وابن ماجه.

ما يقوله من اغتاب أخاه المسلم

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن كفارة الغيبة: أن تغفر لمن اغتبته، تقول: اللهم اغفر لنا وله".

أذكار الصباح والمساء

أذكار الصباح يبدأ وقتها من الفجر إلى طلوع الشمس، وأذكار المساء بين العصر والغروب:

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "من قال حين يصبح وحين يمسى: سبحان الله وبحمده مائة مرة: لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه".

وروى أيضا عن ابن مسعود قال: "كان نبى الله صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال: أمسينا، وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. رب أسالك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها. وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها. رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر. رب أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر. وإذا أصبح قال ذلك أيضا: أصبحنا وأصبح الملك لله. إلى آخره".

وروى أبو داود، عن عبد الله بن حبيب قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قل. قلت يا رسول الله ما أقول؟ قال: "قل هو الله أحد،

والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

وروى أيضا عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يع أصحابه يقول: "إذا أصبح أحدكم فليقل: اللهم بك أصبحنا، وبك أمسين وبك نحيا، وبك نموت، واليك النشور. وإذا أمسى فليقل: اللهم بك أمسي بك أصبحنا، وبك نحيا، وبك نموت، واليك المصير"، قال الترمذى: حديد حسن صحيح. وفى صحيح البخارى عن شداد ابن أوس عن النبى صل الله عليه وسلم قال: "سيد الاستغفار: اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت خلقتنى، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك م شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى، فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها حين يمسى فمات من ليلته: دخل الجنة، ومر قالها حين يصبح فمات من يومه: دخل الجنة" وفى الترمذى عن أبي هريرة رضى الله عنه "أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرنى بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال قل "اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات الأرض، رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى، وشر الشيطان وشركه وأن نقترف سوءا على أنفسنا أو نجره إلى مسلم. قله إذا أصبحت، وإذ أمسيت، وأذا أخذت مضجعك" قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

وفى الترمذى أيضا عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مامن عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء

و السميع العليم ثلاث مرات فيضره شيء" أى لا يضره شيء. وفيه يضا: عن ثوبان وغيره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال حين يمسى وإذا أصبح رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا: كان حقا على الله أن يرضيه".

وفى الترمذى أيضا عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قال حين يصبح أو يمسى: اللهم إنى أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وأنبياءك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمد عبدك ورسولك صلى الله عليه وسلم: أعتق الله ربعه من النار، فمن قالها مرتين: أعتق الله نصفه من النار، ومن قالها ثلاثا: أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار، ومن قالها أربعا: أعتقه الله من النار".

وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن غنام: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر: فقد أدى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يمسى: فقد أدى شكر ليلته". وفى السنن صحيح الحاكم عن عبد الله بن عمر قال: لم يكن النبى صلى الله عليه سلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح: "اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة. اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى. اللهم استرعورتى، وآمن روعاتى".

اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى، عن يمينى، وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى" قال وكيع: يعنى الخسف.

وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة أنه قال لأبيه: يا أبت: إنى أسمعك تدعو كل غداة: "اللهم عاغنى فى بدنى، اللهم عافنى فى سمعى، اللهم عافنى فى بصرى، لا إله إلا أنت. تعيدها ثلاثا حين تصبح،وثلاثا حين تمسى؟ فقال إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهن، فأنا أحب أن أستن بسنته" رواه أبو داود.

وروى ابن السنى عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من قال إذا أصبح: اللهم إنى أصبحت منك فى نعمة وعافية وستر فأتم نعمتك على وعافيتك وسترك فى الدنيا والآخرة، ثلاث مرات إذا أصبح وإذا أمسى: كان حقا على الله أن يتم عليه".

وروى عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال: "أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم؟ قالوا: ومن أبو ضمضم يا رسول الله؟ قال كان إذا أصبح قال: اللهم وهبت نفسى وعرضى لك. فلا يشتم من شتمه، ولا يظلم من ظلمه، لا يضرب من ضربه".

روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "من قال فى كل يوم حين يصبح وحين يمسى: حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات: كفاه الله تعالى ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة".

وروى عن طلق بن حبيب قال: جاء رجل إلى أبى الدرداء فقال: يا أبا الدرداء قد احترق بيتك، فقال: ما احترق، لم يكن الله عز وجل ليفعل ذلك بكلمات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، من قالها أول نهاره: لم تصبه مصيبة حتى يمسى، ومن قالها آخر النهار، لم تصبه مصيبة حتى

يصبح: "اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ: لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما. اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صرط مستقيم" وفى بعض الرويات أنه قال: انهضوا بنا، فقام، وقاموا معه، فانتهوا إلى داره وقد احترق ما حوله ولم يصبها شيء !!

أذكار النوم

روى البخارى عن حذيفة وأبى ذر رضى الله عنهما قالا: النبى صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: "باسمك اللهم أحيا وأموت، وإذ استيقظ قال: الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور".

وكان من هديه صلى الله عليه وسلم أن يضع يده اليمنى تحت خده ويقول: "اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك - ثلاثا ويقول: اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شىء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شىء، وأنت الآخر فليس بعدك شىء، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء، وأنت الباطن فليس دونك شىء. إقض عنا الدين وأغننا من الفقر". وكان يقول: "الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافى ولا مؤوى". وكان إذا أوى إلى فراشه كل ليله جمع كفيه ثم نفت فيهما فقرأ فيهما: "قل هو الله أحد" و"قل أعوذ برب الفلق" و"قل أعوذ برب الناس"، ثم مسح بهماما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده الشريف - يفعل ذلك ثلاث مرات".

وأرشد صلى الله عليه وسلم أن يقول المضطجع:

"باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه: إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين". وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضى الله عنها: "سبحى الله ثلاثا وثلاثين، واحمديه ثلاثا وثلاثين، وكبريه أربعا وثلاثين". و"أوصى صلى الله عليه وسلم بقراءة

الدعاء المتقدم ذكره: اللهم فاطر السماوات و الأرض".. إلخ، كما أوصى بقراءة آية الكرسى، وأخبر بأن من يقرأها لايزال عليه من الله حافظ.

وقال للبراء: "إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، وقل: اللهم أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجات ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجا ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، ونبيك الذى أرسلت، ثم قال: فإن مت، مت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول".

دعاء الاستيقاظ من النوم

أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم المستيقظ من نومه أن يقول: "الحمد لله الذى رد على روحى، وعافانى فى جسدى، وأذن لى بذكره" و"كان إذا استيقظ قال: لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك لذنبى، وأسألك رحمتك، اللهم زدنى علما، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى، وهب لى من لدنك رحمة: إنك أنت الوهاب". وصح أنه صلى الله عليه سلم قال: "من تعار من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد، هو على كل شىء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفرلى، أودعا: استجيب له، فإن توضأ وصلى: قبلت صلاته".

الذكر عند الفزع والأرق والوحشة

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا فزع أحدكم فى النوم فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنها لن تضره" قال وكان ابن عمر يعلمها من بلغ من ولده، ومن لم يبلغ منهم: كتبها فى صك وعلقها فى عنقه. اسناده حسن: وعن خالد بن الوليد رضى الله عنه: أنه أصابه أرق فقال رسول الله عليه وسلم "ألا أعلمك كلمات: أذا قلتهن نمت؟ قل: اللهم رب السماوات السبع وما اظلت، ورب الأرضين وما أقلت، ورب الشياطين وما أضلت: كن لى جارا من شر خلقك كلهم جميعا، أن يفرط على أحد منهم، أو أن يبغى على، عز جارك، وجل ثناؤك، ولا أله غيرك، ولا إله ألا أنت".

المؤمنون الصادقون

قال الله تبارك وتعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (لأنفال:٢-٤).

هذه صفات كريمة، وخصال نبيلة، سجايا حميدة، ومشاعر عالية رفيعة، بدأها الله تبارك اسمه بقوله:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ)، ثم حكم لهم فى نهاية المطاف بأحكام، أولها: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً). وثانيها: (لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ)، وثالثها: (وَمَغْفِرَةٌ)، ورابعها: (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ).

ما أجمل هذه الصفات التى من أجلها استحق هؤلاء هذه الأحكام ! فما أصدق الله إذا قال: وما أعدله إذا حكم !

إنه - جل شأنه - وصف هؤلاء أولا بأنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم: من عظمته وهيبته، ونزلت فيها السكينة والطمأنينة: لعفوه ورحمته وبره وكرمه، قال جل شأنه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد:٢٨).

ووصفهم ثانيا بقوله عز من قائل: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً) ذلك: لأن الإيمان يزيد بالطاعة.

وما من شك فى أن شجرة الإيمان طيبة الثمر، كريمة العطاء أصلها ثابت وفرعها فى السماء، كلما تقدمها بالأعمال الصالحة: ازدادت نماء

وكرما.. إذ أنها بالأعمال الطيبة الصالحة: (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) (إبراهيم:٢٥).

ووصفهم مولانا تبارك وتعالى ثالث بقوله: (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) أى لا يسلمون أمورهم يفوضون شئونهم – بعد الأخذ فى الأسباب – إلا على الواحد القهار، جل شأنه، فهم إذا سألوا لا يسألون إلا الله، و إذا استعانوا فلا يستعينون إلا بالله، وإذا توكلون فلا يتوكلون إلا على الله.

ورحم الله القائل:

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدنيا
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعز به ... وكن عفيفا، وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
استغن بالله عن دنيا الملوك ... كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

ووصفهم مولانا رابع بقوله: (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ) أى يؤدونها أداء مستقيما لا عوج فيه ولا نقص، وإنما كمال وخشوع وجلال.

* * *

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنهما، وهى تصف صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان يحدثنا ونحدثه، ويكلمنا ونكلمه، فإذا حضرت الصلاة: كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه".

وقد سئل (حاتم الأصم) رضى الله عنه: كيف أنت إذا دخلت الصلاة؟ قال إذا أردت الدخول فى الصلاة: توضأت، فأحسنت الوضوء، ثم إذا

توجهت للوقوف بين يدى الله: جعلت كأن الكعبة أمامى، والموت ورائى، والجنة عن يمينى، والنار عن شمالى، والصراط تحت قدمى، والله مطلع على، ثم أتم ركوعها وسجودها، فإذا سلمت: لا أدرى: أقبلها الله أم ردها علي؟!

يرحم الله هؤلاء الأبرار الأطهار، الأتقياء الأنقياء الأصفياء الأخيار.

إنهم عرفوا الله، فأحبهم الله.. فرضى الله عنهم، ورضوا عنه.

كانوا فى حالة السلم: كما وصفهم مولانا جل شأنه فى قوله: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (النور:٣٦-٣٨).

وكانوا فى حاله الحرب: كما قال الله تعالى فى شأنهم: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) (الأحزاب:٢٣-٢٤).

* * *

ووصف الله تعالى المؤمنين الصادقين خامسا بقوله:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ): أى أنهم علموا أن نعم الله التى يسديها ويسوقها إلى عباده لا بد لها من تزكية تتطهر بها.

فالمال: رزق، وفيه نفقه.

والعلم : رزق، وفيه نفقة.

والصحة : رزق، فيها نفقة.

والذكاء : رزق، وفيه نفقة.

فنفقة العلم: أن ينفع به الناس، ويخرجهم بالهداية من الظلمات إلى النور.

ونفقة المال: أن يعين به الفقراء والمساكين، ويغيث به ذا الحاجة الملهوف، ويأخذ بيد الضعيف، ويواسى به البؤساء.

ونفقة الصحة: أن يستعملها فى الخير: فيشارك الضعفاء، ويزيل النكبات عن المنكوبين.

ونفقة الذكاء: أن يستغله فى الخير البناء، لا فى الهدم والتخريب وظلم العباد.

* * *

هذه نعم أنعم الله بها على عباده، وأمرهم أن يؤدوا ما وجب فيها، شكرا لله المنعم المتفضل، الذى يقول فى الحديث القدسى الجليل: "عبدى: أنفق: أنفق عليك".

هذه خمس صفات، استحقوا بمقتضاها أن يحكم لهم بأربعة أحكام:

١ – أولئك هم المؤمنون حقا.

٢ – لهم درجات عند ربهم.

٣ – ومغفرة.

٤ – ورزق كريم.

فرضى الله عنهم، ورضوا عنه، وجعلنا منهم.

خاتمة فى ذكر الله تعالى

(نسأل الله حسن الخاتمة)

لما كانت الصفة الأولى من صفات المؤمنين الصادقين قوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) (الأنفال: ٢) أردنا أن نذكر كلمات جامعة فى ذكره جل شأنه:

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: "رآنى النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أحرك شفتى، فقال لى: "بأى شىء تحرك شفتيك يا أبا أمامة؟ فقلت:أذكر الله يا رسول الله، فقال ألا أخبرك بأكثر وأفضل من ذكرك بالليل والنهار؟ قلت بلى يا رسول الله، قال تقول: سبحان الله عدد ما خلق، سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما فى الأرض والسماء، سبحان الله ملء ما فى الأرض والسماء، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه، سبحان الله ملء ما أحصى كتابه،سبحان الله عدد كل شىء، سبحان الله ملء كل شىء. الحمد لله عدد ما خلق والحمد لله ملء ما خلق، والحمد لله عدد ما فى الأرض والسماء، والحمد لله ملء ما فى الأرض والسماء، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه والحمد لله ملء ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شىء، والحمد لله ملء كل شىء) رواه أحمد.

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال: الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال، حمدا يوافى نعمه ويكافىء مزيده، ثلاث مرات، فتقول الحفظة: ربنا لا نحسن كنه ما قدسك عبدك هذا وحمدك، وما ندرى كيف نكتبه؟ فيوحى الله إليهم أن اكتبوه كما قال عبدى". رواه البخارى.

والحمد لله أولا وآخرا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهرس

الإهداء ٥
المقدمة ٧
رحلة مع القرآن العظيم ٩
أقوال الأئمة فيه ١٠
أقوال المستشرقون فيه ١٣
الحث على مدارسة القرآن ١٦
فضل تعلم القرآن ٢٠
آراء المنصفين من علماء الغرب فى القرآن الكريم ٢٢
الترغيب فى تلاوة القرآن ٢٨
حرمات القرآن ٣٧
دعوى باطلة ٤٦
اعرف للقرآن حقه ٥١
شهادة الخصوم للقرآن ٥٨
حاجة العالم إلى الإسلام ٦٠
الرشوة المقنعة ٦٦
من المفلس؟ ٦٨
حرمة الدماء فى الإسلام ٧٠
حرمة المال فى الإسلام ٧١
الإسلام: شريعة العدل والرحمة ٧٣
حق الرعية على الراعى فى الإسلام ٧٥
الإسلام: شريعة الأخلاق ٧٩
محمد نبى الرحمة ٨١
شرعة الحق فى الإسلام ٨٥

الرسول رحمة مهداة..... ٨٦
الإسلام محرر البشرية ٨٧
المساواة فى الإسلام..... ١٠٢
العدالة فى الإسلام..... ١٠٥
محمد: جعل من العبيد سادة..... ١٠٩
زيد بن حارثة..... ١١٢
بلال بن رباح ١١٧
سلمان الفارسى..... ١٢٠
أهمية الدعوة..... ١٢٣
ذكر الله تبارك وتعالى ١٣٣
حقيقة الذكر، ما هو الذكر؟..... ١٣٥
فضل الإكثار من ذ كر الله ١٣٧
فضل مجالس الذكر ١٤٢
أدب الذكر..... ١٤٥
فضل من قال لا إله إلا الله..... ١٤٧
فضل التسبيح والتحميد ١٤٧
الترهيب من عدم ذكر الله..... ١٥٠
فضل الاستغفار ١٥١
الذكر المضاعف جوامعه ١٥٢
ما يقوله من اغتاب أخاه المسلم..... ١٥٣
أذكار النوم..... ١٥٨
المؤمنون الصادقون..... ١٦١
خاتمه ١٦٥

رقـم الإيـداع
١٩٧٩ / ٣٧٥٠
الترقيم الدولى I. S. B. N.
977-7049-94-3